محمود قاسم

زمن عبد الحليم حافظ

رواية

الكتاب: زمن عبد الحليم حافظ (رواية)

الكاتب: محمود قاسم

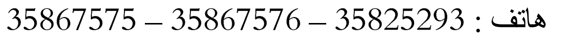
الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية



فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قاسم ، محمود

زمن عبد الحليم حافظ / محمود قاسم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **978 -977 -446 – 527 – 5**

أ – العنوان رقم الإيداع : **15982 / 2017**

زمن

عبد الحليم حافظ



حقيقة

تنبض فكرة هذه الرواية في داخل كل إنسان منا عاش هذه السنوات، ولا يزال يعيشها باعتبارها مخزونة في أعماقه، لكن المخرج السينمائي محمد خان، كان أول من نبهنا إلى أن عبد الحليم حافظ كان له زمن، يُسمى باسمه من خلال مقدمة فيلمه "زوجة رجل مهم" الذي كتبه رؤوف توفيق.

ونبهنا الفيلم أن المطرب الذي شكل وجداننا لسنوات طويلة ترك آثاره في الأجيال المتلاحقة، وجسَّد في كل منا بأغانيه حالة من الشجن ننتفض كلما سمعناها.. فكم من ملايين القصص ارتبطت بهذه الأغنيات نروي هنا بعضها..

استهلال

قال الطبيب في أسى: الحالة بالغة الخطورة!!

سألته وقد تسرب الانزعاج في عظامي: هل لي أن أعرف التشخيص بالضبط؟

بدا مترددًا. وكأن من واجب الطبيب ألا يزعج مريضه، وأن عليه أن يتركه في سكينة مع مرضه المستعصي. رحت أتوسل إليه بعيني كي يخبرني بحالتي.. فهذا يحدد مصيري.

سألته: القلب..؟

هز رأسه بالنفي..

رحت أعدد له الأمراض المستعصية التي يعرفها البشر في نهاية القرن العشرين، وأيضًا التي أخبرتنا كتب التاريخ أنها اندثرت مع ضحاياها.. ومع كل منها يهز رأسه بالنفي، بدا كأنه مبرمج على هز رأسه الخالية من الشعر.. قلت مازحًا:

– إذن. فأنا ميت ولا أدري!!

ابتسم لأول مرة، هز رأسه مجددًا بالنفي. قلت:

– حيرتني.. ما الأمر بالضبط..؟ هل هو مرض جديد؟

مط شفتيه كأنه يقول: ربما!!

قلت: لا تخبرني به شفاهة. اكتبه لي.. وأعدك ألا أحاول معرفته إلا بعد خروجي من هنا.

كأنني جاهدت أن أخلصه من حرج شديد. بسرعة مد يده إلى القلم، وكتب كلمات سريعة في وريقة كانت أمامه. طواها، ثم دسها في جيبي.. قلت وكأنني سأرتجف:

– والاستشارة؟

رد وهو ينزع معطفه الأبيض، باعتباري آخر مرضاه اليوم، أو لعلي آخر حالة يقوم بتشخيصها في حياته: ربما أكون على سفر.. مع السلامة.

هذه المرة تعجلنا الخروج من باب العيادة، أحسست أن الأمراض التي عددها له، تجمعت داخل الكبسولة الملفوفة في الوريقة التي بها التشخيص.

فتحت الوريقة.. وجدها بيضاء تمامًا إلا من كلمات أربع:

– حالة مستعصية من الحنين..!!

الأغنية الأولى

طول عمري قلبي خالي ويخاف من الغرام

من منا يتذكر أول مرة سمع فيها صوت المطرب الذي صار جزءًا من حياته، وشكل وجدانه، إلى الحد الذي أصابه بهذه الحالة المستعصية من الحنين؟

لا أذكر أبدًا متى سمعت صوته لأول مرة؟ فأسرتنا الصغيرة لم يكن لها أن تفخر مثل غيرها بامتلاك هذا الراديو الكبير، الذي يمكن إدارة مؤشره يمينًا ويسارًا لنسمع أخبار العدوان على بورسعيد، أو أخبار الحفلات التي يحييها المطربون الجدد الذين ظهروا في السنوات الأخيرة: نجاة الصغيرة، وعبد الحليم حافظ، وفايدة كامل، وكمال حسني.. الذين يشعلون حارتنا حماسًا فنروح نغني مع الصوت القادم من محل "عم بشير".

النار.. النار.. النار.. النار يا استعمار..

لم نفهم سر التجمعات الغفيرة التي سارت في شارع النيل بكرموز، وتلك الدبابة الصغيرة التي يركبها جندي يرتدي زيه العسكري بطريقة توحي أنه ظل يعدها مائة سنة وأكثر. فعلى رأسه سلطانية نحاسية أشبه بنصف البطيخة، وعلى كتفه بندقية في طرفها قطعة من القماش الأبيض السميك، عرفت بعد ذلك أن اسمها "قايش" كم قصمت أكتافنا ونحن

نحرس حدود معسكر التدريب في أواخر عام 1972. لم نر شيئًا في مثل بياضه سوى حذاء الأستاذ عز الدين الذي "يزأزأ" فوق الأسفلت كلما خرج إلى عمله، أو كلما عاد منه لدرجة أطلقنا عليه "سيمافو تووت.. تووت"..

هذا الجندي، يضع السلطانية النحاسية فوق رأسه، (خوذة كما أعرف الآن)، بدا أشبه بتمثال إسماعيل باشا الواقف في المنشية أمام البحر، لا يمكن لعينيه أن تهتزا لو رمينا أسفله "بمبة" كبيرة من التي يبيعها عم سعيد. ولا يمكن أن يهتز أبدًا أمام الصوت الجذاب الذي ينطلق من عربة تتحرك أمام الدبابة، استطاعت أن تكون متسعًا لكل أبناء كرموز، الذين راحوا يرددون معًا كلمات الأغنية، كأنهم يحفظونها عن ظهر قلب:

"واحنا اخترناك.. وحانمشي وراك..

يا فاتح باب الحرية يا ريس يا كبير القلب".

وسط هذا الطوفان من البشر السعيد، والرؤوس المليئة بالتساؤلات، حفظت الأغنية، وأصبح جسمي الصغير نقطة في الحشد البشري المتدفق الذي لا يعرف أين الطريق، يحملون صورة لضابط صغير السن، يبدو متجهم الوجه، أو لعله سمح الملامح، ذي شارب خفيف، ويضع غطاء رأس يختلف تمامًا عما يضعه الجندي فوق رأسه.

الأصوات الهاتفة تنشد كلمات الأغنية، وددت أن أسأل:

– من هذا الرجل..؟

لا أحد يمكن أن يسمع، وليس هناك وقت للإجابة.. فقط عليك أن تنطلق وسط تيار البشر. وأن تردد "احنا جنودك.. سيبنا في ايدك مصر أمانة".. وتسمع واحدًا يقاطع كل هذا الصخب، كأنه يأمرهم بالصمت كي يهز يديه بكل قوة، ويرتج جسمه، وتخرج الكلمات من حنجرته مليئة بالحشرجة، وكأنه ظل يغني طيلة الليل في حفل مقام في العراء: "عاش جمال عبد الناصر" وبسرعة يشتد الهتاف بين جماهير كرموز المتدفقة، وقد انتابتهم حالة من الهوس الجماعي، وتراقصت الصور التي يحملها البعض، كأنهم يؤكدون أن صاحب الصور الذي يهتفون باسمه يدعى جمال عبد الناصر، وأنهم يطالبون به أن يكون رئيسًا للجمهورية.

آه.. إنه نفس الرجل الذي يتردد اسمه أحيانًا في بيتنا، أو في حانوت عم بشير.. وهؤلاء الناس يغنون من أجله "بكرة وطنا حيصبح جنة وأنت معانا". لكن من يكون هذا الرجل الذي يغني الناس معه، وقد انطلق صوته من مكبر الصوت الذي يملأ أركان شارع النيل؟

قال صديقنا نبيل ذات يوم ونحن نقف على "قمة" الحارة:

– فعلًا. غنى عشرات الأغاني، لكن "ظلموه" هي التي صنعت شهرته. القلب الخالي ظلموه.

أخرجت من جيبي المليم الوحيد، وبكل حماس، دفعت به للرجل، وقلت:

– أريد هذه الصورة..

أمسك الرجل المليم، وقلبه بين أصابعه، بدت عليه حسرة صغيرة، وقال:

– خسارة.. لو جئت بالأمس لأعطيتك إياها.. الصورة اليوم بمليمين.. خاصة هذه.

أشار إلى لوحة متوسطة الحجم، مصنوعة من الورق المقوى، طبعت عليها مجموعة من صور المطربين الذين نسمع أغانيهم في الراديو. قلت:

– ولماذا هذه؟

رد: إنها مطلوبة..

مددت يدي لأسترد المليم مرة أخرى. لمس الحسرة في إصبعي، وهو يناولني قطعة النقود، فتلقفها مرة أخرى، ودسها في جيبه الذي "يشخشخ" بعشرات الملاليم والقروش، وقال:

– ماشي.. سأعطيها لك.. لي عندك مليم.. هاته باكر..

ثم راح يقطع حواف الصورة بمدية حامية في يده وقال قبل أن أختطفها:

– غداً.. هات المليم..

وانطلقت في الشارع حاملًا صورته غير عابىء بحقيبتي القماشية المليئة بالكتب، التي تحرر منها القلم الرصاص الجديد الذي اشتريته صباح

اليوم نفسه، وانطلق خارجها.. وأسرعت إلى الحاجة مريم لأريها صورة الشاب الذي تتحدث عنه بإعجاب شديد، والذي حفظت آخر أغنياته بكل سهولة.. وتغنيها لزوجها الحاج أحمد كلما خرج أو عاد..

(بالمناسبة.. حتى الآن لم أدفع المليم الثاني لبائع الصور).

هتفت الحاجة مريم: إنه هو.. رائع.. يا جماله!!

سألتها: هل هو صاحب الأغنية..؟

من بين أسنانها المهتمة راحت تناغم الكلمات: "طول عمري قلبي خالي.. وبخاف من الغرام".

قبل أن أنام كنت قد حفظت كلمات الأغنية رغم أنني لم أسمعها بأكملها حتى الآن. خرجت بعض مقاطعها من فم جدتي الأهتم. لكنها لم تستطع أن تستكملها أمامي. نظرت إليّ وقالت:

– عيب يا ولد.. إذهب إلى أمك..

حاولت أن أردد الأغنية من جديد والظلام يغلف الغرفة التي ضمتنا جميعًا، أمي فوق سريرها مع ابنتها التي ستتزوج بعد أسبوع، وتحت قدميها نواعم، وصافي. أما أنا فقد تربعت على عرش الأريكة الوحيدة في الشقة الصغيرة، ونمت وحدي، نمت.. لا.. حاشا لله.. كيف أنام وهو موجود في البيت؟ إنه هناك يضحك ضحكته الجميلة، وقد مشط شعره

الكثيف نحو الخلف، وترك "بف" صغيرًا في أعلى رأسه. بدت بساطته ليس فقط في ابتسامته، بل أيضًا في قميصه المزركش تحت بلوفر بني اللون.

رحت أدفع عيني لأن تظلا مفتوحتين، سوف يتضايق حتمًا لو تركته ونمت، فهو يبتسم من أجلي. وهو مستعد أن يغني "وأتاريهم قبل ما ينسوه ظلموه". غلبني سيد النوم قليلًا، وسرعان ما تنبهت، نظرت إلى الصورة المعلقة أسفل إطار وضعت بداخله صورة الحاجة مريم قبل أن تحج بثلاثين عامًا مع زوجها الشيخ أحمد، رددت:

– معذرة..

رأيته يبتسم من خلال الضوء المنساب من نور الحارة. أدركت أنه لم يتضايق، خرجت إلى النافذة، نام الجميع هناك. وبعد قليل سوف يستيقظ الشيخ أحمد ليذهب إلى مسجد القومندان لصلاة الفجر، وسيطرق عم زغلول على النوافذ والأبواب ليوقظ عم عمران، وسعد الشايب، وعم فوزي للذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الفجر. ما أجمل حارة الفهد في مثل هذه الساعة من الليل. النوم نعمة. لكن عبد الحليم لم ينم. إنه مازال يبتسم.. مسكين.. لو استطعت أن أغمض له عينيه، وأن أجعله ينام.. سوف أحاول..

سحبت الصورة من مكانها، نظرت إليه لأتأكد أنه لا يزال يبتسم. فعلًا لقد ظلموه فلم يستطع أن ينام. لماذا لا تغفل عيناه. تمددت فوق الأريكة.. رحت أضمه إلى صدرى.. "إزاي حبيتك أنت. وحبيتك إنت

ليه" أغمضت عيني دون استئذان.. يا إلهي.. ما الذي حدث للصورة؟ لقد تكرمش تحت جسدي الثقيل فتجعد وجهه. ومع هذا فلا يزال يبتسم. "نسيت روحي وتاه عقلي". رحت أعتذر له.. حاولت إصلاح الصورة، لكن هيهات، وعلي أن أدبر مليمين لشراء صورة أخرى.

شاع في الحارة أن سينما الجمهورية الواقعة في شارع إيزيس سوف تعرض فيلم "بنات اليوم" يوم الاثنين القادم، والتذكرة بنصف فرنك.

يا لها من حسرة يمكن أن تستبد بأي واحد يقع عليه هذا الخبر وقع الجبل، والسبب أن عبد الحليم جاء إلى سينما الجمهورية بعد أن مر على سينما ريالتو، وراديو، وبارك.. وبلازا، ثم أن الجمهورية بنصف فرنك. عشرون مليمًا بأكملها.. قال حمادة عبد العليم:

– الأمر سهل.. العسلية..

وبرقت العيون من الدهشة.. فعلًا العسلية هي الحل، نشتري من العم باجوري قطع عسلية ونبيعها ونكسب. لكن الأمر يحتاج مغامرة. الشيخ أحمد لا يقبل المغامرة والحاجة مريم لا تمسك المصروف في يدها: "ولماذا أمسك المصروف. وأنا لي رجل". أما أم حسن فهي الوحيدة التي اقتنعت بالفكرة. فالباجوري يكسب من بيع الكثير من الحلوى للأولاد حين يأتي مرة واحدة كل أسبوع.. إذن.. هاك قرشين.. وإياك أن تضيعهما.

– عسلية ظلموه يا أولاد.. عسلية ظلموه يا أولاد..

عشرون قطعة كاملة، عادت منها إلى أم حسن ثمان عشرة قطعة وأربعة مليمات ثمن قطعتين، بحسرة قالت:

- ياما جاب الغراب لأمه..!!

التهمنا كل القطع ولم نتناول العشاء.. وهل يقدر أحدنا أن يطلب شيئًا للعشاء بعد هذه الوجبة المعسلة، لكن إلا "بنات اليوم".. قال حامد عبد العليم:

- سأقرضك.. لا تتضايق.

تمتمت: وددت أن أراه بعرق جبيني..

قال: إذن سأدعوك على حسابي.. موافق..؟

أمام هذه الدعوة كان لابد أن أنحشر داخل هذا الحشد من لحوم البشر، وراء الحاجز الحديدي، لأشتري التذكرتين، رحت أدس رأسي في النافذة، وأنا أحمل فوق ظهري هذا السخيف الذي تمكن من القفز فوق أجسامنا، واستطاع أن يمد يده الطويلة ليأخذ تذاكره، دفع الرجل المتجهم الوجه لي بالوريقة، وقال:

- هات "شلن" آخر..

ووسط يوم حشر حقيقي، قلت: ليس معي غيره..

لم يبال بما أقول. دفع يدي بقوة كي أترك لغيري الفرصة.. قبضت على "الشلن" وعدت إلى حامد. أمسك الورقة وراح يسب أسلاف الرجل، وقال:

– هذه ليست ورقتنا.. أنا لم أعطك هذه..

مددت قامتي فجأة، وقلت: آه.. لقد فهمت!!

كان الصبي الذي قام بمهارة بتغيير "الشلن" قد ذاب وسط الزحام، ولعله دخل القاعة. قال حامد:

– أنا أعرفه.. سأجعل فيلمه ظلامًا..

ردد صبي واقف إلى جوارنا، لعله سمع الحوار: غني ظلموه..

اندفع حامد بكل صدره نحو الصالة الصغيرة التي يمكن الدخول منها إلى قاعة العرض، قفز فوق ضحيته، لم يحس بكتل اللحم التي تلتصق به وتحاول أن تخلص فريسته منه، لم يفلح أحد أن يفعل ذلك إلا بعد أن حصل على التذكرتين، مد لي بواحدة، وقال: ليس هناك ظلموه مع حامد يا أولاد الزانيات.

لم أعرف أبدًا أن حامد يتمتع بهذه القوة، دفعني وسط الظلام، أصابني العمى، فجأة لم أر شيئًا وأنا القادم من الضوء. خلت أني دخلت مغارة لا مخرج منها، تعلقت به كأنني أتوسل إليه ألا يتركني. لم يتوقف عن

ترديد أقذع السباب كأنه يستعرض قوة حنجرته وسط الخيالات السوداء المتلاصقة في الظلام. استندت إلى جوار حائط قلت:

– لا أرى شيئًا..

رد وهو ينفث كلماته: سوف تعتاد.. انتظر..

سألت: أين عبد الحليم حافظ؟

بغلظة قال: قلت انتظر.. الله يخرب بيتك.. أنت السبب.

تقلصت إلى جوار الحائط، ورحت أبحث عن عبد الحليم حافظ. ليس هناك سوى أشباح تتحرك فوق الشاشة، وتتكلم بلغة غير مفهومة.. لم أود أن أسأله ثانية عما يحدث من حولنا. أحسست بوجهه يقترب مني وكأنه يود أن يتكلم، بسرعة قلت وأنا أشير إلى الشاشة بصوت مسموع:

– هذا هو.. أليس كذلك؟

بصوت هامس يختلف تمامًا عن الطريقة التي تكلم بها قبل قليل:

– يا أهبل، لا تفضحنا.. بذمتك هل هذا عبد الحليم حافظ؟

قلت: إنه يتكلم أفرنجي؟

أحسست كأنه يبتسم، ربت على كتفي، وسأل: وهل عبد الحليم يتكلم أفرنجي؟

رددت: ربما!!

هنا تدخل شخص خلفنا كان يبدو محشورًا مثلنا، وكأنه يبحث عن مكان لعينيه ليرى الشاشة:

- لو سمحت. نود أن نرى الفيلم..

التفت إليه حامد، وقال:

- وأين الفيلم.. الفيلم لم يبدأ بعد.. هذا "نص فصل" لفيلم الاثنين القادم..

وبدا كأنه يرد على كل تساؤلاتي..

تشتتت أقدام الصغير وراء ذلك العاشق الشاب الذي انتقل قلبه بسهولة بين الأختين سلوى وليلى بعد أن غنى لها "أهواك" أمام البيانو، وهي تدفع له بمائدة صغيرة تتحرك على أربع عجلات، وعليها الشاى، الذي لم يشرب منه عبد الحليم حافظ (خالد) قط. ولعله كان شايًا سينمائيًا في المقام الأول. شاي المخرج. أو بعض عمال الإضاءة.

تشتتت أقدام الصغير في الدنيا بحثًا عن هذا الكوب. ودفعتني قدماي، بالأمس فقط، بعد أن تجاوزت الأربعين بخمس سنوات إلى ستوديو مصر، رأيت فيه مخزنًا كبيرًا مليئًا بقطع الاكسسوار التي ظهرت في أفلام عربية كثيرة.. ملابس "وداد"، وخوذة "صلاح الدين"، وباروكة "الملك ريتشارد" وقد علاها التراب، سألت أمين المخزن:

- هل لديكم أكواب شاي..؟

رد الرجل ببراءة: هل حضرتك فاطر؟

هززت رأسي في سذاجة، لعلي لم أسأل جيدًا. فقد ظن أنني غير صائم، ارتبكت وأنا أردد:

– لا، أقصد هل لديكم أطقم أكواب الشاي التي كانت في فيلم "بنات اليوم"؟

ابتسم الرجل وقال: "تعال.. انظر هنا"..

صحبني إلى غرفة مظلمة، امتلأت بروائح التراب والأفلام القديمة، والذكريات الممزقة، وقال:

– هنا كل إكسسوارات الأفلام القديمة.

تركني الرجل وسط هذا الخضم من الروائح والأكواب البلاستيكية، والموائد المتحركة فوق عجلات وقد تحطمت، التفت حولي وسط الظلام وامتزجت هياكل الأشياء المظلمة بوجوه الصغار التي ملأت قاعة سينما الجمهورية، حين ذهبت إليها لأول مرة لرؤية فيلم عبد الحليم حافظ، رأيت حامد يقترب مني هامسًا، ويقول بلهجته الساخرة:

– هه.. هل رأيت عبد الحليم؟

هززت رأسي كأنني أنفض عن نفسي أشياء ثقيلة. قلت:

– هل هذا عبد الحليم حافظ؟

اصطدمت قدمي، وأنا أتحرك وسط الغرفة المظلمة ببراد، خفت أن أدفعه، فجأة أضيئت الأنوار، رأيت أمين المخزن أمامي وهو يعتذر عن الكهرباء المقطوعة، قال:

– معذرة. هذه الغرفة لم تفتح منذ زمن طويل.. ولذا نفضل أن نفصل عنها الكهرباء.

سمعت صوت شيء يتحرك في المكان، بين قطع الإكسسوار المتناثرة في الغرفة الواسعة، كدت أرى كل النجوم والنجمات الذين تزاحمت من أجلهم في قاعات سينما الجمهورية، والنيل، والدورادو، وبارك، وماجستيك، وركس، وريتس، ورادبو، وفريال، وريالتو، وأمير، وريو، ورويال، ومترو. ثم في قاعات نادي السينما بالإسكندرية والقاهرة. وأخيرًا أمام شاشة التليفزيون الصغير الذي لم أمتلك غيره في حياتي.

تجمعت كل هذه الوجوه والسينمات في لقطة واحدة داخل الغرفة، أغمضت عيني. حاولت أن أتذكر فريد الأطرش، وفريد شوقي، ومحمود المليجي، وحمدت الله أن الكهرباء مقطوعة، كي أشاهد هذه الأشياء على راحتي وبطريقتي الخاصة، أحسست أنه من العسير أن أفصل كوب شاي ماجدة، عن كوب آخر وضع فيه كمال الشناوي السم لزوجته في فيلم "حبي الوحيد"، أو كوب ثالث وضع فيه كمال الشناوي أيضًا السم لابنه في فيلم "أقوى من الحياة".

اندفعت خارج الغرفة وأنا أتنهد.. ورحت أتذكر الجسر الصغير الذي وقفت فوقه ماجدة، وحليم يغني لخيالها "أنا اللي السحر دايما كنت أهرب من عينيه" سألت: هل كان يمكن أن أرى بقايا الجسر، تذكرت أن أمين المخزن أمطرني بالشكوى من المباني التي زحفت على المنطقة في السنوات الأخيرة، ودمرت أرضًا سوداء عريقة، لتصعد خرسانات عالية تتنافس في اختراق الأفق، وقررت أن أنسى الجسر وألا أسأل عن مصيره للأبد..

ازداد تشتت أقدام الصغير، الذي أصبح الآن كبيرًا، وراء القلب الذي ظلموه.. لكن الأشياء ما عادت كما كانت.. ففي كل هذه الأماكن، التي اعتادت العيون أن ترى الشاب الذي ظلموه، وقد اقترب من الجسر، يتخيل أن حبيبته هناك، تحولت إلى صالات أفراح بسينما الجمهورية بشارع إيزيس، وسينما الشرق بالمنشية، وأيضًا سينما بارك في محطة الرمل، وغالبًا ما يأتي "العوالم" ببزاتهم السوداء، وقمصانهم البيضاء إلى هذه الصالات ليغنوا بأصوات لا تنفذ إلى الآذان إلا وأصابتها بالحمى.. لم يجرؤ أحدهم أن يغني للعروسين هذه الأغنية إلا بعد الزواج بعدة أشهر على الأقل..

قال شقيق امرأتي وهو يصلح ما بيننا يومًا:

– اسمع. ألا تريد أن نغني معًا "ظلموه".

لأول مرة أفهم لكلمات الأغنية معان مختلفة، بدت مجسدة في نطقه لحروف الكلمة. لم أشأ أن أعلق على ما قاله ولكن الذاكرة راحت بعيدًا،

فقد فاز خالد في النهاية بحبيبته، أما أنا فلم أحب زوجتي أبدًا بنفس الطريقة. ولا أعرف لماذا لم أفكر في أن أمشي في شوارع المدينة المظلمة كي أغني من أجلها، رغم أنني احترفت الغناء بهذه الطريقة من أجل نجاة. ونادية الفرجاني، وجميلة. تمتمت لنفسي قائلًا وأنا أتمدد فوق فراشي وحيدًا:

– لعل الكبر قد نال منا.. فلم نعد نفس الأشخاص..

لكن. لماذا الرجفة التي انتابتني في تلك الليلة وأنا أدير مؤشر الراديو الذي ينام في أحضاني طيلة ساعات اليوم:

طول عمري قلبي خالي ويخاف من الغرام
من كل رمش جارح بنظرة وابتسام
كانت العيون تقابله وتلمح بالكلام
يهرب من قبل حتى ما يرد لهم سلام

شيء ما يهتز فوق السرير، أو لعله في ذلك الراديو الصغير، لم أستطع أن أتحمل الصور السريعة التي تتدفق على الذاكرة. أردت أن أوقف السيل الذي غمرني فجأة، فأغرقني في حنين جارف، أدرت مفتاح الراديو، فتوقف الصوت ثم تدفق صوت من الذاكرة يردد:

"هل تعرف أى زمن أود أن أعيش فيه طيلة حياتي.. الخمسينات".

وبسرعة دفعت المفتاح لينساب الصوت من جديد:

لحد عينيك ما قابلوني

نسيت روحي وتاه عقلي

الركب يحملني رغم إرادتي، من سنوات بعيدة، انفلتت من أصابعنا، لكنها ماثلة في تلك الرأس، لا يمكنها أبداً أن تذوب في هذه الساعة المتأخرة من الليل، دفعت الغطاء فوق رأسي كأنني أريد أن أختبىء من شيء. لعله عجزي الشديد عن إدارة دفة الزمن ليعود. ونرى من خلفه: البشر، والأحداث، وذلك الطفل الصغير الذي تدفق مع الجموع التي بايعت جمال عبد الناصر، والذي لا يزال يرتجف حتى الآن كلما شاهد "خالد" يجر قدميه على شاطىء النهر الصغير، والكلمات تخرج من أعماقه "نسيوه وفاتوه. وأتاريهم قبل ما ينسوه" فتهز كل الذين تجمعوا في صالة سينما الجمهورية، وربما أمام شاشة التليفزيون في كل البيوت. أو لمن سمعوا الأغنية في تلك الليلة..

يا إلهي.. قد تكون مجرد أغنية بالنسبة للناس..!!

لكن بالنسبة لشخص مصاب بحالة مستعصية من الحنين.. فذلك أمر آخر..

الأغنية الثانية

على صدرك أرتاح من همي

اليوم رأيت جمال عبد الناصر.. رأي العين..

فعلاً إنه شخص حقيقي بأنفه الكبير البارز، يحرك يديه وسط مجموعة من الرجال لا يمكن لأحد أن يعرف هويتهم، إنه نفس الشخص الذي نراه في الصور، وعلى الشاشة الصغيرة، أجل. والله العظيم بالثلاثة إنه عبد الناصر بشحمه ولحمه.

انتظرناه ساعات طويلة، ولماذا لا ننتظره؛ فهذا هو عيده وعيدنا. وعيد الإسكندرية، إنه يهل بموكبه الضخم إلى الشوارع مرة كل عام، وجماهير المدينة تصطف ساعات طويلة في انتظاره.. على كل منهم أن يبحث عن أنسب مكان يمكن من خلاله أن يرى عبد الناصر بسهولة، لأطول لحظات ممكنة.. وقفنا فوق البناية الصغيرة في أطراف كوم الدكة، ورحت أنظر إلى الشرفات المطلة على الميدان، وقلت لحامد:

– إنهم محظوظون. يرونه أفضل.. ومن منازل..

أشار إلى قدميه وقال: انظر.. يمكن لهذه أن تقع.

كنا نقف فوق بقايا شرفة قديمة في بناية متهالكة، عرفت فيما بعد أنها أحد القصور الصغيرة التي تم هدمها.. قال أحد الواقفين:

- رأيته سبع مرات.. إنه أسمر.. وطويل.. وابتسامته جذابة..

تدخَّل حامد في الحوار الذي دار بين البشر المكدسين فوق الشرفة، التي يمكنها أن تسقط بنا في أية لحظة، وأقسم بشرف أمه، على طريقة فريد شوقي، أنه رأى "جمال" ثلاث عشرة مرة، ثم أخذ يحكي حكايات غريبة عن المرات التسع الأولى التي رأى فيها "جمال" بنفسه، ولكنه لم يؤكد أين رآه في المرات: العاشرة، والحادية عشرة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، قلت:

– انظر.. إنه قادم..

انحنت رءوسنا والتفتت الرقاب نحو الجندي المتأنق الذي يركب دراجته البخارية، كأنه يفسح مكانًا للموكب القادم أو كأنه يعلن بظهوره أن علينا أن نستعد للحفل القادم، راح يطلق صفارات نفير دراجته البخارية وهو يتحرك بها في خيلاء ملحوظة، بينما انطلق التصفيق من كل اتجاه، أحسست بقلبي يخفق، واهتزت الأجساد من حولي، ونسيت أن الشرفة يمكنها أن تسقط بنا في أية لحظة.

اشتدت حدة التصفيق عندما ظهرت سيارة "جيب" يركبها بعض جنود الحرس الجمهوري، وقد بدا كل منهم في قمة أناقته، قال حامد:

– الله أكبر.. أربع عشرة..

اهتززت بشدة، فشيء ما سوف يحدث الآن. لعل أبواب السماء تتفتح.. آه.. ما هذا. إنه الموكب، أصوات عالية.. دراجات بخارية تنطلق كأنها الطوفان وسط صراخات وهتافات "يا جمال يا حبيب الملايين، ماشيين في طريقك..." يبدو كل شيء كأنه شريط سينمائي لا يمكن الإمساك به. لا أحد يسمع، ولا أحد يرى، الكل يصرخ، ويهتف، ويزعق، وجمال يبزغ فجأة في سيارته الكبيرة المليئة بالناس، إنه أطولهم، وهو الوحيد الذي يلوح لنا.. يا إلهي.. إنه ينظر نحوي.. لعله رآني.. بالتأكيد يعرف أنني أنتظره منذ أربع ساعات.. إنه يبتسم لي.. هذه الابتسامة الجذابة.. يبدو كأنه يشكرني لأنني هنا.

تدفقت وسط الجموع التي انطلقت وراء الموكب لعلها تريد أن تلحق به، أو أن تلتقط نظرة للرجل الذي رأيناه، الذي اندفع موكبه نحو ملعب البلدية مخلفًا وراءه كل هؤلاء الذين يهتفون باسمه، يريدون أن تكون لهم أماكن في الملعب الضخم، الذي يمكنه أن يسع كل أبناء المدينة، يرون القائد لأطول مدة ممكنة وهو يبدأ خطابه بعبارة "أيها الأخوة المواطنون".

جذبني حامد من كتفي، هتف: أين تذهب أيها المتهور؟

أجبت بسذاجة: إلى الملعب.. أريد أن أراه..

قال وهو يشدني نحو الرصيف الأقل زحامًا من جموع البشر التي اندفعت وراء الموكب:

– خمسة عشرة مرة!!

سألته: قلت أربع عشرة مرة؟

هز رأسه وقال هذه المرة باثنتين.. فقد نظر لي بعينيه ولوَّح بيديه يحييني، إنه يعرفني جيدًا.

لم يلتفت إلى الدهشة المرتسمة على وجهي، وأكمل:

- طبعًا.. ألم أره خمسة عشرة مرة؟، بذمتك لو أن شخصًا رأيته عشرة مرات.. أليس في إمكانه أن يتعرف عليك؟

هززت رأسي، وبسذاجة قلت:

– وأنا أيضًا.. أحسست أنه يعرفني..

سحبني من يدي وقال: سأجعلك تراه..

رددت: والله..

وكثرت التساؤلات، لكنه لم يشف غليلي، بعد قليل وقفنا أمام الكشك الخشبي المنصوب في حديقة محطة مصر.. وقفنا أمام التليفزيون الكبير الموضوع أمام جمع من الواقفين عليهم متابعة ما يحدث في الملعب.. كان جمال هناك يستعد لإلقاء خطابه.

عبدالناصر حبيبنا، قايم بنا يخاطبنا

نجاوبه ويجاوبنا.. قائد ومجندين

قول ما بدالك.. احنا رجالك

ودراعك اليمين..

يا إلهي.. إنه صوت عبد الحليم حافظ يغني في راديو وضعه الرجل الذي يسمونه نديمًا، فوق مائدة صغيرة وهو يجهز أكواب الشاي للواقفين، شاءوا أم أبوا.. قلت:

– إنه عبد الحليم..

ردد: إنها أغنية عيد الثورة لهذا العام. ما رأيك؟

يعرف أننا اعتدنا أن نتلهف على الأغنيات الجديدة التي غناها "حليمو" في أعياد الثورة الأخيرة. "بالأحضان" و"احنا الشعب"، "الفوازير"، و"بستان الاشتراكية"، هذا العام حفظنا "يا أهلًا بالمعارك" قبل أن نسمعها. لا أعرف من أين جاء بها عمران عبد الكريم، تنافسنا على حفظها كما نفعل مع محفوظات المدرسة، ثم شددنا الرحال إلى نفس المكان، هنا في محطة مصر، لنشاهد وقائع الحفل الفني الساهر الذي اشترك في إحيائه حليم ونجاة وشادية وأيضًا محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش.. إنهم نفس أبطال الفيلم الذي شاهدناه منذ أيام عن عودة أبطالنا من اليمن.

"اطلب تلاقي تلاتين مليون فدائي.. في دراعك اليمين".

امتزجت كلمات الأغنية بكلمات الزعيم. صاح نديم:

– قل يا ريس.. احنا رجالك.. ودراعك اليمين.

بدا كأنه يروج لبضاعته المطلوبة، فالمشاريب واجبة، وعلى من لا يطلب أن يقف بعيدًا منبوذًا مثلما أفعل الآن. وراح يلملم في نهاية الخطاب ثمن حب الناس لحليم وللريس، قلت لحامد:

– هيا بنا لنراه ثانية.. لعل موكبه عائد من الملعب.

قال: بل سنبقى أمام التليفزيون.. سنسمع أغنية جديدة "ضي القناديل".

كنا نعرف أن التليفزيون سيذيع تسجيلًا لأغنيته الجديدة "ضي القناديل". وكان علينا أن نبقى هناك حتى منتصف الليل، ومن الغريب أن الوقت مر سريعًا، لم أحس أن هناك زمنًا إلا حين نظرت إلى عقارب ساعة محطة القطار، وقلت:

– سأعود، فأم حسن تنتظرني.

سألت:

– هل سمعتم آخر نكتة؟

لم أنتظر حتى يؤذن لي أن أقول النكتة. وأنا الذي لم يتقن في حياته إلقاء نكتة واحدة تثير ضحك الآخرين وربما لهذا، رحت ألقى نكتتي السخيفة، كأنني أحاول أن أتخلص منها:

في البداية أحسوا بالغرور فغنوا "صورة كلنا كده عايزين صورة" وعندما بدت الصورة جميلة وقفوا يغنون "يا أهلًا بالمعارك" وبسرعة جاءت

المعركة، وبسرعة غنوا "اضرب.. اضرب. لأجل الكبار.. لأجل الصغار" وهوبا.. جاء يضرب فضُرب ماذا يفعل؟ لم يكن أمامه سوى أن يقول "اللي شبكنا يخلصنا".. لكن من شبكهم لم يخلصهم.. فقال "الويل الويل.. يا أمه.. الويل".

وضحكت على النكتة، وأنا أعرف أنها سخيفة.

نظرت إلى نجاة، أردتها أن تبتسم، فقد رويت النكتة من أجلها. إنها شاعرة تعيش في زمن كامل الشناوي. من الواضح أنها لم تستطعم النكتة. أو لعلها لم تفهمها.. كان عليَّ أن أنسحب من مكاني، وأجلس وحدي في القمطر الأخير في المدرج الكبير، أحسست أنني كنت بالغ السخافة، ليس بالطبع لأن النكتة غير مضحكة، بل لأنني زدت الجرعة قليلًا، رحت أتلفت حولي، لعلي أرى شخصًا غريبًا يرصدني بعينيه، يبدو أنني واهم، فالكل منكفيء على كراساته، يكتب ما يمليه الدكتور حسونة عن أمراض الحيوان، ويبدو أن هذه النكتة السخيفة قد تطايرت مع الريح.

فتحت كراستي، ورحت أقلب الصفحات، بدأت في كتابة التاريخ 9 أبريل 1969، المادة: أمراض الحيوان، ثم توقفت عن الكتابة، رفعت رأسي مرة أخرى وفتشت حولي عن شخص ينظر إليَّ. فكرت أن أغادر المدرج قبل أن يتنبه أحد إلى وجودي.. لا أعرف لماذا تورطت في إلقاء النكتة السخيفة؟ هل من أجل إرضاء نجاة زميلتي الشاعرة، أم لأؤكد للجميع أننى شجاع وأنني يمكنني أن ألقي نكتة سياسية من آلاف النكت التي تصل مباشرة إلى الرئيس، والتي حكى عنها في أحد خطبه.

لا.. ليس هذا هو السبب.. بل هناك سبب آخر، فمن هو الشخص الذي سيقوم بتوصيل نكتتي إلى الريس.. إنه بالتأكيد واحد من الذين سمعوني أرددها. لذا لم يضحكوا.. وربما أنها نجاة نفسها، أو ربما أنا بحركاتي الرعناء، لماذا انسحبت بعد أن قلت النكتة إلى القمطر الأخير في المدرج، بل لماذا أتسلل الآن خارج المدرج وأنطلق نحو الشارع؟

لا أعرف الإجابة.

سألني الشاعر فريد صواب.

– هل تريد أن تسمع شيئًا مثيرًا؟

كنت قد أغلقت باب السياسة ثلاث مرات، وفي كل مرة لا أفلح في أن أغلقه جيدًا.. ابتسم وردد مداعبًا:

– الرجل يفتح باب السيارة لامرأته إذا كانت السيارة جديدة، أو إذا كانت المرأة نفسها جديدة.

آه منك أيها اللئيم.. فأنا بالطبع لست امرأة جديدة، ولا السيارة جديدة.

لكنني لم أعتد ركوب السيارات. وكل ما أطمع فيه هو أن أركب أتوبيس، أجد مكانًا أجلس فيه، أو حتى أقف مستريحًا. دون أن يتكلم، دفع بشريط مسجل في جهاز تسجيل موجود داخل السيارة، لم أشأ أن أخبره عندما انطلق صوت من داخل السيارة أنه زاعق أكثر من اللازم، خفت أن

يسخر مني لأني لا أعرف أنه يمكن تركيب جهاز تسجيل في السيارات، وكل ما أعرفه أن هناك راديو سمعته يوماً يردد أغنية لعبد الحليم حافظ عندما ركبت مع أحد زملائي في الكلية.

انطلق صوت موسيقى في كل أرجاء السيار كأن هناك عشرات السماعات في كل مكان. قال فريد:

– ستريو.. سنسمع عبد الحليم ستريو.

التصقت بالمقعد الوثير وقد امتلأت السيارة بصور انحشرت في رأسي.. يا إلهي ما أقسى أن يحدث هذا في مثل هذه اللحظات، لإنسان مصاب بتضخم في الحنين. ضاع صوته وسط الخضم المتدفق في رأسي، والسيارة تنطلق في شوارع مرسى مطروح الخالية من المارة، سألني:

– ما رأيك؟

لم أكن بقادر أن أرد على سؤاله؛ فالجسد ينتفض، والصوت الشجي ينطلق من كل أرجاء السيارة التي عاد بها بعد إعارته إلى السعودية. انطلقت كل الأشباح التي أعرفها تتجسد أمام عيني.. هذا الجندي المتأنق الذي جلس فوق الدبابة الصغيرة. وصوت المكبر يدوي "بكرة وطننا ح يصبح جنة وأنت معانا" المرحوم حامد وكأنه رأى عبد الناصر ستًا وعشرين مرة "اطلب تلاقي تلاتين مليون فدائي" ها هو ذا شبحه يشدني في تلك الأمسية كي نذهب سويًا.. عبد الحليم يغني "يا بخت من يبارك.. بنهارها نستبارك. ونرجع منصورين" الشبح يبتسم. ربما لأن صاحبه مات قبل يونيه

بعام كامل.لا. بل بعام وأربعة أيام، فقد دهمته سيارة جيش ضخمة في الثاني من يونيه قبل عام النكسة.

يا جمال يا حبيب الملايين.. يا جمال.. يا حبيب الملايين

ماشيين في طريقك مش ناسيين. يا جمال

يا حبيب الملايين..

اندفع اسم الرجل يخترق الحين المتضخم في داخلي، وسرعان انسكب الدم القديم الذي انحبس هناك خمسة عشر عامًا وربما أكثر.. أحس أن الكلمات تأتي من متاهة بعيدة، متاهة سار فيها حامد، وحب لم يكتب مع صباح، ونظرة الحب الأولي مع جميلة، ومنافسة على قلب "حياة"، وخطوات تدب في شارع الخديوي وراء ممرضة كل ما أعرفه أنها ذات رداء أحمر. وجمال حبيب الملايين يطل على شعبه في كل الشوارع يخطب ساعات طويلة والناس تدمن صوته، وغناء أم كلثوم" وطريقة عبد الحليم وهو يتحرك أمام الفرقة الموسيقية يحرك يديه يمينًا وشمالًا، في كل الاتجاهات، كأنه قائد اوركسترا يعانق اللحن

بالأحضان يا جناين يا مزارع بالأحضان

يا أحضان الثورة يا حلم وعلم..

أحاول أن أفعل شيئًا، لا أعرف كيف تفتح نوافذ هذه السيارات، أريد أن أطرد الأشباح خارج السيارة، أريدها أن تطير مع هواء خريف مرسى مطروح، ولا تعود، إني أختنق، لا أعرف مم، هل من الأشباح التي

تتكدس فوق كأنها تريدني أن أبقى معها؟، إنها هناك، لا تود أن تغادرني..
حاول فريد أن يوقظني بكلماته:

– يا عيني يا سيدي.. انظر الكلمات..

"صحيت الشرق بحاله وديانه ويا جباله

قام بشعوبه وأبطاله مع بطل الأمة العربية".

لم أود أن أسأله كيف ينظر إلى الكلمات. وكيف أسأله وكل هذه الأشياء صحت فجأة على غير ميعاد، قادمة من الجبال والوديان التي نامت فيها كل هذه السنوات.. تحاول أن تثقل على حنيني المتضخم، يا إلهي. إنها مؤامرة يدبرها فريد ضدي.. يريد أن يميتني من شدة الشحنة التي تنسال من المكبرات المجسمة التي تم وضعها عن عمد في أماكنها في هذه الليلة الباردة، رغم أننا في الثالث من أكتوبر. مددت أصبع يدي اليسرى نحو المسجل كأنني أريد أن أوقفه، أحسست أن علي أن أستمر في هذه الحالة فها هي ذي المدينة الصامتة تغني معنا، الصوت القادم من الأغوار البعيدة ينتزعني من أحزاني التي تتدفق معي منذ أن هجرتني سميحة إلى رجل آخر سيعقد قرانه عليها بعد أيام.. يا إلهي.. حكمتك. فخروج الأشباح من مقابرها أهون من التفكير في امرأة حية هجرتني إلى جسد رجل آخر.

وعلا صوتي فوق مكبرات السيارة:

أنت اللي كسرت قيودنا.. وكسرت عدو بلادنا..

طلعنا الفجر بإيدنا.. فجر القومية العربية

احنا الملايين.. احنا الملايين

لم أسمعه حين قال أول مرة:

– بس.. صوتك ردىء.

كرر الجملة، بدا أنني اندمجت كثيرًا مع الأغنية، أحسست أنها تطردني من أحزاني.. رحت أصفق مع الجوقة.. وارتفع صوتي يعلو على المكبرات.. النشوة تتملكني، رأيت سميحة أمامي وسط الظلام وهي ترتدي ثوب فستان الفرح الذي اشتريته لها، تخلعه وترميه، أحاول أن ألتقطه، تدوس عليه السيارة، تنطلق وسط حبات المطر التي بدأت تهطل قبل موعدها بكثير، يا إلهي.. إنها ليست حبات مطر.. بل قطرات دموع..!!

قال فريد:

– أراك اندمجت كثيرًا. أنت حساس..

لم أرد.. وهل يستطيع شخص أن يرد وهو بهذه الحالة من الشجن؟ أو أن يواجه الأشباح القادمة من الماضي، تحييه على طريقتها، حتى الأمس، الأمس فقط، أصبح في جعبة الحنين.. لا أستطيع أن أمسكه بيدي.

فجأة أوقف السيارة على جانب الطريق الخاوي، أحسست به ينظر نحوي كأنه يسألني عن رأيي، لعله لاحظ أنني أشبه بفرس اشتد لهاثه بعد أن قطع آلاف الأميال من العدو فوق الجبال والوديان. ومن الأفضل أن يطلق عليه الرصاص ليستريح من كد الرحلة.

كانت في صمتي إجابة لسؤاله، أحسست به حين ضغط على زر المسجل وسمعت صوت الشريط ينطلق من محبسه، راح يعبث في علب الشرائط بعد أن أضاء نور السيارة، قلت بصوت منهك:

– اطفيء النور..

يا له من نوع مزعج استطاع أن يخرجني لحظات من هذه الكوابيس التي حلت فوق غطاء السيارة. قال:

– هل تريد أن تسمع شريطًا آخر..؟

توقعت أن يدفع شريطًا به أغنيات أخرى من التي ملأت سنوات صبانا، وكثيرًا ما هرولنا في طريق الإسكندرية ونحن ننشدها في مواكب عبد الناصر، وكثيرًا ما جرينا أسفل أقواس النصر التي كانت تملأ شارع الكورنيش وقد امتلأت بصور الزعيم، قلت:

– خسارة!

وابتلعت بقية الجملة "كل هذا انقضى".

فجأة دبت في شراييني دماء ساخنة متدفقة، حين انطلق صوت الشاعر يردد بلهجة ساخرة:

- على قد ما تبقى حقير يدوك شهادات تقدير..

صحت بحدة: أضء النور لو سمحت.

تمكنت من دفع باب السيارة، وخرجت، حاولت أن أتشمم رائحة اليود، وجاء هدير الأمواج أعلى من الاضطراب الذي تملكني.. فكرت في أن أهرب جريًا مثلما فعلت في مدرج كلية العلوم عندما أطلقت النكتة السخيفة.. فلازلت أحس أن رجال المباحث منتشرون هناك يمكنهم أن يقبضوا على أى شخص ينتقد الريس حتى ولو كان أنور السادات الذي دفع بكل خصومه قبل أسبوعين في المعتقلات.

خرج فريد من سيارته، بدا كأنه أحس بما أعانيه قال:

– إنها قصيدة طويلة.. أنت لم تحتمل منها سوى أبيات قليلة.

وسط الظلام التفت إليه، سألته بصوت خافت:

– شيء غريب.. عبد الحليم الذي غنى كل هذه الأغنيات لعبد الناصر كان يصر أن يردد "عاش اللي قال" في كل حفلة من حفلات الأخيرة لرئيس آخر يختلف عنه كثيرًا.

بدا كأن السؤال صدمه. فهو يعرف جيدًا أن عبد الحليم أصر أن يغني أغنية "عاش اللي قال" مع بداية كل حفلة في أيام عمره الأخيرة بعد أن كان يصر أن يغني "احلف بسماها وترابها" ترى هل ما فعله خيانة عظمى لكل الصور التي غناها منذ "الله يا بلادنا الله على جيشك والشعب معاه" وحتى "ولا يهمك يا ريس من الأمريكان" التي ندم يومًا أنه غناها في لحظة انفعال.

اقترب فريد مني وأنا أدوس بقدمي فوق الرمال المبللة بمياه الأمواج. وقال:

– السادات كان يحلم أن يغني له عبد الحليم أغنيات شعبية مثلما فعل مع جمال. لكن أبداً.. اعتقد أن عبد الحليم قاوم ومات قبل الأوان.

هززت رأسي في أسى وأنا أدوس في المياه بحذائي المثقوب من نعله:

– فعلًا.. قبل الأوان.

الأغنية الثالثة

إفتكرنى...... حاول

البندقية فوق الكتب والخوذة على الرأس ثقيلة، والعين تحدق في الأفق، تبحث عن أي حياة. والأقدام تدب على الرمل، السلك الشائك يتماوج في الظلام والأذن ترهف السمع. فربما يمر الضابط النوباتجي في أية لحظة كي يتأكد هل نقوم بدورنا على أفضل ما يكون أم لا.

فالعدو الإسرائيلي قريب للغاية، قد يرسل رجاله ويتسللون عبر الأسلاك، ويدخلون المعسكر "معسكر التدريب" ويستولون عليه.. لذا فأنا مسئول الآن عن هذا القطاع العريض من تلك المنطقة الصحراوية التي تطل من الخلف على حي الزهور بعماراته الجديدة الجذابة، لذا فعلى السكان ألا يناموا في هدوء مادمت أني على قيد المستيقظين. صحيح أن نظري ضعيف، ولكن هناك عدوًا مشتركًا قد يأتي في أية لحظة.

فجأة لمحت الضابط المنوب قادمًا من بعيد مع شخصين آخرين. أعرف صوته جيدًا، يتكلم مع زميلي الذي يحرس المنطقة الشرقية، يعنفه، بل لعله يصفعه، ربما كان نائمًا.. إذن فلأنتظره، سأريه أنني أحرس المنطقة بأكملها، بمن فيهم سكان حي الزهور النائمين الآن في سكينة بعد أن تجاوزت الساعة الثانية والنصف، اقترب الملازم حسام في الظلام ومعه اثنان

من صف الضباط، فزعت في وجهه، وأشهرت نحوه البندقية واهتزت الخوذة فوق رأسي: قف عندك..

حاول أن يمد يده نحو فوهة البندقية كأنه يود أن يشدها، قال في سخرية:

– لا.. حلو.. إنه متيقظ.

كان يوجه كلامه إلى مساعديه، صرخت بصوت جهوري تعلمت أنه عنوان "الوحشية" في مثل تلك اللحظات وكررت:

– كلمة سر الليل؟

لم يرد.. أولاني ظهره. واتجه إلى زميل آخر لي في القطاع الأوسط، وسمعته يردد:

– هأ.. كان يسمع عبد الحليم حافظ..

واهتز قلبي.. رغم أنه كان يقصد زميلي الذي صفعه. عرفت أنه كان يضع راديو صغيرًا على رأسه ويستمع إلى الحفل الساهر الذي يحييه عبد الحليم، قيل إنه سيغني الليلة ثلاث أغان كاملة.. تطلعت إلى الأفق، وتأكدت أن الحفل لم ينته بعد. وأن أغلب سكان حي الزهور يسهرون الآن حليم. وأنه من الواجب أن أتولى في حراستهم بأمانة حتى يستمتعوا بالحفل، أو يستمعوا إليه نيابة عني.

في طابور الفطور كانت المنافسة حامية..

كانوا جميعًا من الذين سمعوا الأغنيات الجديدة في حفل الأمس. أكد أحمد عبد العال أن مفاجأة الحفل هي أغنية "رسالة من تحت الماء"، ثم راح يردد بعضًا من مقاطعها، إنه شخص غريب سرعان ما يحفظ بمن فيهم سكان حي الزهور النائمين الآن في سكينة بعد أن تجاوزت الساعة الثانية والنصف، اقترب الملازم حسام في الظلام ومعه اثنان من صف الضباط، فزعت في وجهه، وأشهرت نحوه البندقية واهتزت الخوذة فوق رأسي: قف عندك.

حاول أن يمد يده نحو فوهة البندقية كأنه يود أن يشدها، قال في سخرية:

– لا.. حلو.. إنه متيقظ.

كان يوجه كلامه إلى مساعديه، صرخت بصوت جهوري تعلمت أنه عنوان "الوحشية" في مثل تلك اللحظة وكررت:

– كلمة سر الليل؟

لم يرد.. أولاني ظهره، واتجه إلى زميل آخر لي في القطاع الأوسط، وسمعته يردد:

– هأ.. كان يسمع عبد الحليم حافظ..

واهتز قلبي.. رغم أنه كان يقصد زميلي الذي صفعه. عرفت أنه كان يضع راديو صغيرًا على رأسه ويستمع إلى الحفل الساهر الذي يحييه

عبد الحليم، قيل إنه سيغني الليلة ثلاث أغان كاملة.. تطلعت إلى الأفق، وتأكدت أن الحفل لم ينته بعد. وأن أغلب سكان حي الزهور يسهرون الآن مع حليم. وأنه من الواجب أن أتولى حراستهم بأمانة حتى يستمتعوا بالحفل، أو يستمعوا إليه نيابة عني.

في طابور الفطور كانت المنافسة حامية.. كانوا جميعًا من الذين سمعوا الأغنيات الجديدة في حفل الأمس. أكد أحمد عبد العال أن مفاجأة الحفل هي أغنية "رسالة من تحت الماء"، ثم راح يردد بعضًا من مقاطعها، إنه شخص غريب سرعان ما يحفظ كلمات الأغاني، ويربط ذكرياته بأول مرة سمع فيها أية أغنية، هو يعتبر أن "حيرت قلبي معاك" لأم كلثوم هي أجمل أغاني الدنيا لأنه سمعها يوم نجاحه في الثانوية بمجموع 63% أدخلته كلية التجارة. رد عليه ثابت وهو يرفع طبق الفول ويتجرع ماءه:

– تعال.. تعال.. وتعال.. تعال..

تناثر من فمه رذاذ الفول، فضحك الجنود المجندون الذين يجلسون على المائدة بينما أردت أن أدلي برأيي، فهمت أن ثابت يشجع الاغنية التي لحنها بليغ حمدي والتي اختتم بها الحفل "حاول تفتكرني" قلت:

– أحمد عبد العال على حق.

صاح هذا الأخير: ينصر دينك.

دفعني حسين، أقدم جندي علي مائدة الفطور: وحياتك تنقطنا بسكوتك.. أنت لا تفهم سوى في القراءة. اترك لنا عبد الحليم وأم كلثوم وفريد وعبد الوهاب.. نحن خير من يقدرهم.

هنا صاح جاويش المطعم: ثابت.

نظرنا إلى زميلنا المعجب بأغنية بليغ حمدي.. كأن الجاويش يعضده. لكنه بالطبع لم يكن يقصده.. بل أن نتوقف عن الطعام وأن نتوجه إلى الخيام لنرتدي زي طابور الصباح، فجأة، وأثناء سكوتنا، انطلق صوته، التفتنا إلى بعضنا، برقت عينا أحمد عبد العال.. همس:

– رسالة من تحت الماء.

وخرجنا، لأستمع لأول مرة عبر مكبر الصوت في المعسكر إلى عبد الحليم وهو يغرق تحت الماء، فهذا الجندي الذي يتولى أمر الإذاعة الداخلية تمكن من تسجيل الحفل وهاهو ذا يذيع جزءًا من الأغنية، الصوت يتناثر عبر المعسكر، والصحراء، وصوت الجاويش يحثنا أن نسرع إلى الخيام. والرغبة تستبد بي أن أوقف حسين، ذلك الجاهل الذي لا يجيد سوى لعبة "التخمين" التي يغلب بها الجميع، وإن أخبره أن بليغ حمدي هو الذي أفسد عبد الحليم حافظ خاصة في السنوات الأخيرة بعد أن اختلف مع الموجي. وأن أسوأ ما غنى في حياته يتمثل في "زى الهوا" و"موعود معايا بالعذاب يا قلبي" وتذكرت شوارع كرموز تمتليء به وهو يثير في قلوبنا الحسرة "وآه يا خوفي.. آه يا خوفي من آخر المشوار.. آه يا خوفي" ونحن نسمع أنباء

الطائرات الإسرائيلية تغير على مدرسة بحر البقر، وعن استخبارات العدو التي تمكنت من سرقة رادار عند شاطئ البحر الأحمر. أحسست كأن هناك مؤامرة مدبرة لبث الخوف في قلوبنا عبر عبد الحليم حافظ.

لكن، لماذا أناقش حسين، وأحرم نفسي من سماع "رسالة من تحت الماء"، فلأغرق مع حليم في مياهه التي ينادي من تحتها حبيبته. وأقارن بين كلمات هذه الأغنية كلمات كامل الشناوي التي كانت سببًا في أن أحب نجاة بكلية العلوم:

كيف يا قلب ترتضي.. طعنة الغدر في خشوع..

وتداري جحودها في رداء من الدموع...

لست قلبي.. إنما أنت خنجر في الضلوع.

استولى عبد الحليم على معسكر التدريب بعد الثانية من ظهر ذلك اليوم. واشترك معه في السيطرة على المعسكر كل من نزار قباني ومحمد الموجي. وأيضًا الجندي الذي أدار الأغنية حتى بعد طابور العشاء، كأنه يؤكد أن التكرار يعلم الحمار.. لم يكن يعرف أن أغلبنا حفظ الأغنية من المرة الثانية.

وطوال أسبوع كامل من التدريب الشاق، والطوابير المتلاحقة، والدراسة الليلية الصعبة كان أجمل طوابيرنا كلها هو "رسالة من تحت الماء" إلى أن قال أحمد عبد العال ذات مساء بعصبيته الواضحة:

– ما هذا.. كله إني أغرق.. إني أغرق.. ألن يطفو يومًا؟

بدا كأنه يتكلم باسمنا جميعًا، فقد تكررت إذاعة القصيدة، لدرجة أصابت بعضنا وأنا منهم، بسأم واضح.

قال الطراوي أحد زملائنا في الكلية ودفعتنا في التجنيد:

– ولم لا نسمع "يا مالكا قلبي".. "حاول تفتكرني"؟

في نفس الليلة سمعنا الأغنية كاملة، تسجيل حي للحفلة.

وقف عبد الحليم يقدم فريق الموسيقيين الذين يعملون معه.. عفت.. ثم المؤلف الشاب محمد حمزة، والملحن الشاب أيضًا بليغ حمدي.. انطلقت الموسيقى عبر الشريط الذي تمكن حجازي من أن يبث به عبر الأسلاك الشائكة بعد أن اشتراه من محل قريب بحي الزهور.

التفوا جميعًا حول المسجل في خيمتنا التي اتسعت في تلك الليلة لأكثر من أربعين جنديًا مؤهلات عليا عليهم أن ينتظروا قرار الترحيل خلال أيام بعد أن أنهوا تدريباتهم على أجهزة اللاسلكي المتطورة، شكل بعضهم دائرة صغيرة وراحوا يلعبون "التخمين"، بينما أحاط البعض الآخر بحسين الذي سيكسب الجولة حتمًا.. والتف الباقون حول المسجل يسمعون لأول مرة معًا الأغنية كاملة.

أنا.. اللي طول عمرى باصدق كلام الصبر في المواويل

وأنا.. اللي طول عمرى باقول الحب عمره طويل

كان عليَّ أن أخرج إلى الظلام خارج الخيمة وأنظر إلى السماء المرصعة بالنجوم المتناثرة بشكل واضح لا يمكن للمرء أن يتداركه داخل حدود المدينة، ووجدت نفسي أرقد فوق ظهري على الرمل، انطلقت خيالاتي بعيدًا إلى أيام الجامعة.. ترى هل كنا نتصور أن هذه نهايتنا؟

"وعشنا الحب بالأيام. وكل بكره في أحلام.. أتاري.. كل ده أوهام".

تراءت لي نجاة تغني لنا في حفل "سكشن8" الأخير بكافيتريا الكلية أغنية "جاللي الوداع.. جاللي الوداع.. حط إيده في إيدي وجالي" ترد عليها كل من هايدي وميرفت ونادية ونجوان، وأيضًا نجوى.. ارتجفت والصوت يندفع من الخيمة:

سافر من غير وداع.. من غير وداع.. من غير وداع..

كلما سمعت أغنية "حيرت قلبي" تذكرت أحمد عبد العال أول من نبهني أن لكل أغنية ذكريات في حياة كل منا، وكلما سمعت "حاول تفتكرني" تذكرت أحمد عبد العال، "وحيرت قلبي" وتلك الليلة التي جاء فيها الضابط المنوب كي يتفقد كل من في خدمته في تلك الليلة الربيعية من عام 1973، وأيضًا تلك الأمسية الخريفية من عام 1981.

في تلك الأمسية تحول ثلاثة أشخاص في أحد شوارع سيدي بشر إلى كيانات من الماضي، الشارع يخلو تمامًا من المارة الذين بقوا في منازلهم يتلقفون آخر الأخبار التي تبثها محطات الإذاعة والتليفزيون. ماذا حدث بالضبط؟ لا أحد يعرف..

تسرب الصوت من إحدى النوافذ، ردد المذيع في أسى:

– أيها السادة المواطنون.. نستمع الآن إلى ما تيسر من القرآن الكريم..

واهتزت الدنيا من حولي، وأصابني تشنج مفاجىء.

– يا إلهي.. لقد مات.. يا إلهي.. أنت موجود.. وحكمتك هنا.

لا أعرف ما انتابني حقًا، مات السادات وهو في قمة السلطة، وكشف رئيس الشركة ألاعيب محيي مدير الحسابات الذي تعمد أن يضطهدني في الشهور الأخيرة وطلب منه أن يسوي معاشه حتى لا يبلغ النيابة عن مخالفاته الجسيمة.

شيئان كبيران في نفس اليوم.. وربما في الساعة نفسها.. ففي اللحظات التي اتصل فيها رئيس الشركة بمحيي في منزله كانت الرصاصات تنطلق في طريق الأوتوستراد الكبير الذي سيصبح بعد سنوات طريق ذهابي وعودتي إلي العمل.

أغلقت عيني من النشوة.. صرخت: ليس في حكمتك شماتة.. لعلنا نتعلم يا إلهي..

ثم تذكرت أن هناك ضلعًا آخر في المثلث لا يزال يهنأ بما فعل

إنها سميحة.

ابقى افتكرني حاول.. افتكرني حاول.. افتكرني.

لو مريت في طريق مشينا مرة فيه.

أو عديت في مكان كان لينا ذكرى فيه.

فجأة، وسط هذا الجو من الحداد هفت كلمات الأغنية على الشارع الذي مررنا فيه كثيرًا، إنه أحد شوارع المدينة التي عرفتنا جيدًا، وتركنا ذكرياتنا ماثلة وراء كل جدار.. سمعتنا نتهامس ونتعاتب ونتواعد على لقاء قريب..

افتقدتها لأول مرة.. أحسست أن الشارع خلا فجأة إلا من شخص يجتر ذكرياته، وتشمت في مقتل رئيس الدولة، فيفرح للمصيبة التي حلت بالمدير المالي الذي تم اكتشافه لأهون سبب، بعد أن اختلس ما لذ له وطاب من أموال بنكنوت دون أن يتمكن أحد من الإيقاع به حتى الخطابات السرية التي أرسلت بها إلى كل من له علاقة بالمسئولين في البلد، حتى الرئيس الراحل نفسه.

فجأة اكتشفت أنني غير سعيد، وأن شوارع المدينة خالية بالفعل، فلم يخرج أحد من الناس ليهتف ولينوح مثلما فعلت نساء مصر كلها ليلة الثامن والعشرين من سبتمبر قبل أحد عشر عامًا، لعلهم غير مبالين مثلي، ولكن بالتأكيد لم يسقط لأحد منهم مديره المالي المختلس، ولم تهجره فتاته التي عرفت معه أسماء الشوارع الخلفية في المدينة، وبحثت معه عن مسكين متواضع في الأزوقة الضيقة، وأعطته شفتيها تحت شجرة كثيفة الأوراق في أكبر حديقة للعشاق في أطراف المدينة.. تمنيت لو خرج كل هؤلاء الموجودين خلف جدران المنازل ليتضامنوا معي، فيطالبون سميحة بالعودة

إلي من يحبها، أو ليسدوا كل طرقات المدينة أمام كل عاشقين يفكران في التجول هناك، وسيكون مصيرهما مثل مصيرنا: الفراق بلا عودة.

تطلعت إلى السماء السوداء في مدينة مصابة بالحداد، حاولت أن أبحث عن شيء يؤكد أن هناك فتحة استجابت لدعائي.. القرآن يتردد من أجهزة التليفزيون في البيوت..

الليالي الليالي من بعدك واللي جرى لي.

سهرني الشوق.. دوقني الشوق طعم الحرمان من الليالي.

ياما أيام ضاعت يا سلام في عذاب وآلام

سهران ما بنامشي.

قضيت الليل مع قمر الليل في نـجوم الليل نحكي في كلام

صوت عبد الحليم ينطلق من مسجل صغير في محل لبيع السجائر، رحت أبحث في جيبى عن بضعة قروش أحاول أن أشتري بها أى شيء. تذكرت أنني لا أدخن، وقفت إلى جوار الرصيف أحاول أن أتلمس كلمات الأغنية، وأن أجد لنفسي ألف مبرر للوقوف أطول مدة ممكنة.. أدركت فجأة أن السماء قد انفتحت بالفعل، تذكرت ممدوح الذي اعترف لي قبل سنوات أن موت عبد الناصر غسله من أحزان حب ضائع.. لا، ليست سميحة حبي الضائع، اختارت رجلًا آخر، لم يعرفها أسماء كل شوارع الإسكندرية بعد. ولم يقبلها تحت خميلة المنتزه الشهيرة، ولم يهدها عددًا من الهدايا مثل التي تحتفظ بها في درجها، وترتبها باسمي.

فجأة قررت أن أتحرك من فوق الرصيف، تساءلت:

– ترى هل ستحاول أن تتذكرني كما يطلب منها حليم ذلك؟

لم أحاول أن أجد إجابة لسؤالي. فقد كان الرد أكثر قسوة مما فعلت سميحة معي، فهي بالتأكيد لن تبني للمدينة شوارع جديدة تمشي فيها مع الرجل الذي ساعدته أن يخطفها مني، وحتما سوف تمشي في نفس الشوارع، بل وأن تشتري من المحلات نفسها التي كنا نعرج عليها من وقت لآخر. وأن نسمع منه نفس العبارات.. وهي بالطبع لن تحاول أن "تفتكرني" على طريقة عبد الحليم حافظ، ولكنها ستنساني تمامًا. كما ستتقمص الرجل الجديد الذي سلبته لنفسها نيابة عني..

فجأة ارتجفت وأنا أسمع شخصًا يهمس في أذن صاحبه الذي يخترق معه الشارع المظلم:

– كل شيء جاهز.. رعاك الله..

لم أحاول أن ألتفت إلى الشابين اللذين افترقا، أو أن أنتبه إلى الملابس التي يرتديها كل منهما، ببساطة لأنني لم أود أن أخرج من "جو" الأغنية التي بدت نشازًا في تلك الساعة، وهي تنطلق من شريط كاسيت جاء به صاحبه من إحدى سفرياته لدول البترول العربية.

في حياة كل منا لعبته الخاصة التي يتسلي بها مع نفسه حين يكون في حالة وحدة.. وأحلى لعبة يمكن أن تسلي نفسك بها، وتدفعك إلى النوم

العميق هي أن تعد أي شيء فحتما سوف تغوص مع الملائكة في النوم قبل أن تصل إلى رقم ما بعينه.

هذه الليلة أحاول أن أمارس هذه الهواية الغريبة، وأنا أتطلع من زجاج نافذتى إلى الشارع المظلم في تلك الساعة من الليل، لم تنفع كل المحاولات أن تجعلني أنام. سمعت كل نشرات الأخبار التي بثتها الإذاعات الموجودة في المسجل الصغير الذي لا يبارح سريري. أخبار تثير القلق والخوف ولا يوجد فيها ما يجعل المرء ينام قرير العين بل تساعد على زيادة كوابيس الليل، والمتطرفون يهاجمون سيارة رئيس الوزراء ويقتلون تلميذة صغيرة، وانفجار هائل في منطقة الحادث. في البوسنة يموت المسلمون بالمئات، وفي الولايات المتحدة زلزال شرد العشرات، أما كاتراكتا فإنها اهتزت بلا رحمة، والجياع في الصومال يأكلون القطط.

حاولت وفشلت.. حاولت أن أعد الأفلام التي قامت ببطولتها فاتن حمامة.. فوصلت إلى رقم 89 ومازلت على قيد اليقظة، قمت لأقرأ جريدة الأمس في المرحاض، آثرت أن أكمل عدّ الأفلام في الظلام.. عدت من جديد إلى السرير ورحت أستكمل عدد الأفلام التي رأيتها لنجمي المفضل شون كونري منذ أن شاهدت فيلم "دكتور نو" عام 1963، زاد الرقم واحد هذه المرة، وبلغ العدد واحدًا وثلاثين فيلمًا.

اندفعت من فوق السرير، رحت أتطلع إلى الشارع مرة أخرى، روَّعني أن نور الشارع قد انطفأ، ربما أن هذا دليل على اقتراب شروق الشمس، تنبهت إلى المصباح الذي يلقي ضوءًا على الحارس الذي يشهر

مسدسه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، ويتوقع أن يأتيه خصم من أي مكان يطلق عليه رصاصات رشاشاته، يا إلهي، ما أصغر العالم!! تذكرت فجأة أنني أسكن نفس الحي الذي كنت أحرسه منذ عشرين عاماً تقريبًا، وكنت واقفًا في نفس الساعة هناك على مسافة غير بعيدة، أتطلع إلى سكان حي الزهور أكاد أحسدهم وهم يسهرون يستمعون إلى حفل الربيع لعبد الحليم حافظ.

شيء لا يصدق؛ فالأدوار تتبدل والعالم يبدو صغيرًا.. فهذا الحارس الذي يحمل ذخيرة حية يمكنه أن يدافع بها عن نفسه في أية لحظة، لا يسعى إلى أن يمنع الإسرائيليين من الاقتراب من معسكره، فقد استطاع هؤلاء أن يدخلوا القاهرة من أوسع الأبواب، لكنه يتأهب أن يصوب تجاه شخص لا يكاد يعرفه، ولا يمكنه أن يميزه وسط الظلام قد يجيء في أية لحظة مع مجموعة من رفاقه لاغتيال المسئول الكبير الذي يعمل في وزارة الداخلية.

تذكرت فجأة أن عليَّ أن أغير اللعبة، وأن أمارس مفردات لعبة قديمة كثيرًا ما حاولت أن ألعبها كي أضيع بها ساعات الليل أثناء الخدمة العسكرية على السور الشرقي لمعسكر التدريب في تلك الأيام.. أن أعد التكرار الملحوظ في المقطع الأخير من أغنية "حاول تفتكرني"

في إحدى تلك الليالي تمكنت من متابعة المرات التي ردد فيها عبد الحليم كلمة "تعال" وقلت لنفسي هاتفاً: 257 مرة..

تساءلت: ترى هل كنت مصيبًا.. أم مبالغًا؟

وسط ضوء خافت قادم عبر النافذة رحت أبحث عن الشريط.. دسسته في المسجل. ورحت أمارس اللعبة القديمة.. تعال واحد.. اثنان.. ثلاثة. خمسة.. سبعة.. تعال.. تعال.. تعال.. تعال.. تعال.. تعال.. تعال.. تعال.. خلي الدنيا تشوف فرحتنا خلي الدنيا تقول حكايتنا.

ولأول مرة في حياتي أستيقظ في اليوم التالي قبل أن تعلن الساعة عن منتصف النهار بدقائق قليلة.

الأغنية الرابعة

ما أصعب أن تهوى امرأة..

يا ولدى.. ليس لها عنوان

أكاد أشك في أن نزار قباني لم يكن يعرف سامية الحرقاني جيدًا قبل أن يسطر حرفًا واحدًا من قصيدته قارئة الفنجان. بل أجزم أنه عاش معنا وقائع صداقتنا البريئة وهو يدفع بها إلى عبد الحليم كي يغنيها من أجلنا

في تلك الليلة وقف أمام هذا الحشد من الناس، وقد استعد أن يقدم لهم مرثيته الأخيرة للحياة، ولأن المراثي دائمًا تُقدم في جو من الصمت، أشبه بالموت، وبالدرب الطويل الذي نقطعه نحو الأبدية، فإنه أحس أن على هؤلاء جميعًا أن يلتزموا الصمت، أو أن يجلسوا في خشوع ليستمعوا إلى مرثيته، أو بالأحرى وصيته الأخيرة.

لكن أحدًا لم يكن يعرف..

أطلق بعضهم تمليله، وقاطعوا المطرب الذي يئن وهو يقدم لهم فريق العمل الذي سهر معه طويلًا كي يعدوا هذه الوصية الغنائية، وهم يشاهدون الألم يعتصر بطنه، وشبح الموت يرتسم على ملامحه. بدا كأنه غير قادر أن يسيطر على هذا الموقف، تصور أن البعض يحاول أن يفسد ليلة عزائه الأخيرة، وهو على قيد الحياة، تأجج فجأة، وصاح:

– بس بأه.. وبعدين..

ثم أشار إلى أحمد فؤاد حسن أن يبدأ عزف اللحن الأخير.. بل أشد الألحان حزنًا في حياته، وكأنه يشدو بنعيه على الناس، راح يحدثهم عن الخوف الذي ارتسم في عيني قارئة الفنجان، وهي تتأمل في الفنجان "المقلوب" للولد الذي يجلس قبالتها، كان عليها أن تواجهه، يا ولدي لا تحزن.. فالحب عليك هو المكتوب.. يا ولدي.. ثم راحت تكرر بكل حرقة من خلال صوت المطرب المليء بالشجن:

فالحب عليك هو المكتوب يا ولدي..

أقابل سامية في قاعة الدرس الصغيرة.. أجمل من أن يحبها صعلوك مثلي. وأرق من أن يقترب منها ابن أم حسن التي علمته أن كفاف العيش هو الباب الوحيد لدخول الجنة. تبدو كأنها قادمة من الفردوس. واحدة من الحوريات اللائي أخطأن طريقهن إلى شارع الجلاء، أشد شوارع الدنيا تلوثًا بعوادم وضجيج السيارات.

لم أسأل نفسي لماذا نفرت منها عندما جلست بجواري في قاعة الدرس في قسم الدراسات الحرة بمعهد دانتي الليجييري، ولماذا تعمدت أن أعاملها بصلف لا يليق بأم عبده التي باعت الفجل عشرين عامًا في شارع النيل بكرموز، وأصبح ابنها من أشهر تجار الدولارات في زمن سامية الحرقاني.

كان التفسير الوحيد لذلك أنني لا أحب الثريات من أمثالها، والسبب ببساطة أنني من البشر الذين تختل موازين جيوبهم حين يدعون شخصًا على كوب شاي، لكنها مصرة على أن تجلس إلى جوارى باعتبار أن المقعد هو أحد الممتلكات الكثيرة التي اشتراها لها أبوها، صاحب تلك السيارة البيضاء الفارهة، وسائقها الأكثر تأنقًا مني، سألتني بصوتها الحوراني الفردوسي:

– لو كنت أضايقك.. سأغير المكان..

وأنا لا أستطيع أن أخفي ترددي وإحساسي بدونيتي:

– بل سأغادر المكان كله من أجلك..

مقدورك أن تمضي أبدًا في بحر الحب بغير قلوع..

وتكون حياتك طول العمر كتاب دموع..

ابتسمت، وأسبلت عينيها "سبحان المعبود"، روعني فمها "المنقوش كالعنقود" وشعرها الأسود "الغجري" الفاحم الذي يتناسب مع جمال عينيها اللتين أسبلتهما "سبحان المعبود". في تلك الأمسية لم يكن عبد الحليم قد أعلن على الملأ أن شعر حبيبته سوف يسافر في كل الدنيا، وأنها قد تغدو المرأة الوحيدة التي يهواها القلب من الدنيا.. لعله كان يجري البروفات الأخيرة لأغنيته.. تناسيت في تلك الأمسية أيضًا ما ردده حليم قبل ثلاث سنوات "لو أني أعرف خاتمي.. ما كنت بدأت" كل ما حولته هو أن أخفي ارتباكي، أن أمسح كل "الجليطة" التي فرضتها عليها في المرات السابقة.

فلست سوى طالب جاء بإرادته ليتعلم مبادىء اللغة الإيطالية. كل ما يهمني أن أعرف كيف يتخاطب البشر بلغة أخرى. وليس من حقي أن أمنع عنها المقعد.

سألتها وهي تقف إلى جوار سور المعهد، عقب انصراف الدارسين:

– تأخرت السيارة.. هل أنادي لك على سيارة أجرة؟

فتحت فمها المنقوش كالعنقود، ونظرت إلى ساعتها، وقالت:

– موعدنا الثامنة والنصف، سوف....

ثم أشارت إلى السيارة البيضاء الفارهة، وأطلقت تحية المساء.. واتجهت إلى باب السيارة.. سألتها هامسًا:

– هل ستأتين يوم السبت؟

هزت رأسها، ولوَّحت بشعرها الأسود الفاحم، وقالت:

– طبعًا.. إن شاء الله..

– هل تسمعين عبد الحليم حافظ؟

بتلقائيتها، سألت: هل تحب عبد الحليم؟

قلت: مثلك؟

ابتسمت، أردت أن أنتهز الفرصة لأستمر في مداعبتها:

- هل تعرفين نزار قباني.. أقصد هل قابلك؟

بسذاجة ملحوظة تساءلت: لا، طبعًا.. أحيانًا أقرأ أشعاره..

مططت شفتي وأنا أحاول أن أجعلها تتقهقر، فوق الشرفة الصغيرة المؤدية، إلى فصل الدراسة، كي نفسح لآخرين أن يدخلوا من الباب الخشبي القديم، قلت:

– يبدو أنه يعرفك جيدًا!

وأنا أحاول أن أتجنب عينيها الواسعتين، اللتين مسحت حولهما بالريميل الأسود، أحسست أنني لن أكون مبالغًا لو أخبرها أن عيني المرأة التي في فنجان عبد الحليم ليست أجمل، ولا أكثر اتساعًا من عينيها، وأن شفتيها الأشبه بثمرة البندق الصغير، وقد وضعت عليهما أحمر شفاه داكن، كساها بغموض ملحوظ لأجمل من شفتي المرأة في أغنية عبد الحليم حافظ، حاولت أن أتغلب على خجلي الذي يقتلني، ويعكس مشاعري، قلت:

– كأنه كان يقصدك..

ضحكت، لم أكن أتصور أن الجمال الحزين يمكنه أن يطرح هذه الابتسامة المرصعة بالورود، أخفضت رأسها وانسحبت إلى الباب. تركتني أتساءل عن مدلول ما قاله كلانا في هذه اللحظات الجريئة. لم أندم على كلمة قلتها، بل ربما على كلام لم أقله، وتمنيت لو يأتي عبد الحليم ليردد لنا كلمات الأغنية بدلًا من السنيور حسن برعي الذي ينطق الحروف الإيطالية كأنه يغني في أوبرا لاترافيانا.

تعمدت أن أدخل القاعة بعد أن بدأ السنيور حصته وجدها قد وضعت كراستها على مقعدي، كأنها تحجز لي المكان أو كأنها تسد على أي دارس آخر أن يجلس في مكاني المعهود، رحت أدقق في ملامح السنيور، وتخيلته مطربًا اندمج في أغنيته، وعلى المستمعين والطلاب، أن يلتزموا الصمت، أدركت الآن فقط لماذا بدا حليم عصبيًا في الحفل، فالسنيور برعي كثيرًا ما يستاء لو تكلم أحدنا أثناء الدرس، لكن في الحفل الذي أقيم أول أمس، راح البعض يطلق صفيرًا، وهلل البعض الآخر كأنه يود أن يفسد الحفل، ما دفع بحليم أن يثبت لهم أنه يجيد التصفير، وأيضًا الشخط في الآخرين.

وددت أن أسألها إن كانت قد طالعت بعض الصحف اليوم، وعن رأيها في الكاريكاتور الذي صوَّر عبد الحليم يمسك عصا غليظة ويحاول أن يؤدب الجماهير قبل أن يغني لها، تطلعت إلى العصا التي يطرق بها السنيور برعي فوق قمطر أمامه كأنه ينبه الشاردين أمثالي أنه موجود، وأنهم في درس عن أساسيات اللغة الإيطالية.

– أنا لغز.. فلا تحاول أن تفكه.

قلت وأنا أبتسم:

- كل النساء لغز، سواء أردنا أم لم نرد.

بحسرة بدت في نبرتها قالت:

- النساء.. أنا لست من النساء.. أنا كائن هلامي.

لم أستطع أن أحدق في عينيها السوداوين، أحسست كأنها تجذبني إلى أعماقها، أن في داخلها دوامات بلا نهاية. كنت قد عرفت أنها بالصف الثالث في كلية الطب، لكنني لم أعرف بعد لماذا تقتطع من وقتها ساعات طويلة طيلة الأسبوع كي تدرس اللغة الإيطالية، قالت:

– أمي.. إيطالية.. لم أرها في حياتي.. أتمنى أن أسافر إليها..

بدت كأنها تغرقني في متاهة متشعبة، أو كأنها شهرزاد، تروي غرائب الحكايات، كي تشد انتباهي إلى ما تقول، أخبرتني أنها لم تر أمها منذ أن كانت في الثامنة بعد أن انفصلت عن أبيها، أحد كبار المقاولين العرب، وأنها تود أن تخاطب أمها مباشرة باللغة التي تتكلم بها، عرفت فيما بعد أن الإيطاليين هم أكثر الناس تعصباً للغتهم، سألتها:

– ولماذا لا تعملين على أن تسافري إلى أمك؟

ردت:

- لأن الحرقاني يمنعني.. ويمنع كل أخوتي من ذلك..

لم أحاول أن أفتش في وجهها عما أخذته من سحر من أم إيطالية، لعلها غجرية الملامح، فقد بدا لي كل هذا الجمال مليئًا بالحزن، والكآبة. ولأول مرة أحس بالرثاء الشديد لصاحبته، كنا نتبادل الحديث فوق شرفة المعهد الصغيرة، ورغم الطلاب الصاعدين النازلين فوق الدرجات، فإننا كنا

المخلوقين الوحيدين في شارع الجلاء في تلك اللحظات، رغم حالة الطوارىء المفروضة، من أجل وضع عواميد جديدة أمام المعهد لكوبري علوي سيرتفع بطول الشارع "لم أعرف أبدًا أحزانًا تشبه أحزانك" قلت، وقد انطلقت حروف الكلمات من أعماقي مغروسة بالتأوهات:

– ياه.. هل تتحملين وحدك كل هذه المتاعب؟

رأيتها أشبه بدمية من الشيكولاته، سرعان ما تذوب أمام أب متعجرف، مليء بالقسوة، لا يتورع أن يلكمها بشدة، ويصرعها فوق الأرض حين يتصور أنها ترغب في السفر إلى أمها. وكم حاول أن يمنعها أن تحلم بذلك، حتى لو اضطر أن يدخل عليها غرفتها في منتصف الليل ليوقظها، حتى يتأكد أنه قطع عليها لقاء تم بينها وبين أمها في أحلامها. قالت مؤكدة أن قطعة الشيكولاتة تعيد تشكيل نفسها حسبما تشاء:

– سأراها.. مهما حاول أن يفعل..

عرفت أن أباها لا يعلم أن السائق يصحبها ثلاث مرات في الأسبوع كى تأتي إلى المعهد وأنها تنتهز فرصة سفره أو انشغاله كى تخرج من الفيلا الفخمة التي تسكنها بالزمالك لتحضر إلى المعهد سألتها:

– وحين تأتي أمك.. هل ستكفين عن الحضور؟

بلهجة مرتكبة مليئة بالعفوية، قالت:

– لا، طبعًا.. سوف أحضر..

ورفعت إلى عينيها وفهمت كل ما لم تقله بلسانها.

وقف عبد البديع جاري الأعزب في شقتي الضيقة بعزبة "دولاور"، وقال:

– هات الوابور.. واشعله.

نفذت ما قاله. ثم رحت أدفع الكباس بكل قوة فارتفع صوت الوابور عاليًا، ومع كل دفعة للكبار، راحت الحمية تتدفق أكثر في عبد البديع الذي وقف وسط الصالة الصغيرة، وراح ينفش شعره الطويل، وانطلق يغني:

وتفيض دموعك أنهارًا..

وسيكبر حزنك حتى يصبح أشجارًا

ثم أخذ يهز رأسه، ويئن بدلًا من الموسيقى التي من المفروض أن يدندن عليها.

تمايل ذات اليمين واليسار وهو يقلد عبد الحليم حافظ في حفلته الأخيرة، وأخذ يؤكد على الدموع التي سوف تفيض أنهارًا، والأحزان التي ستغدو أشجارًا، والحبيب الذي سيرجع مهمومًا مكسور الوجدان.

وجدت نفسي وقد جلست فوق الأرض أدفع الكباس بشدة مرات غير آبه أن ينفجر وابور الغاز، ليس لأدفع عبد الباري كي يغني بأعلى قدر

من الحماس، ولكن كي أدفع عني كل الذكريات التي تكدست فجأة عن سامية الحرقاني التي انقطعت عن الحضور منذ ثلاثة أشهر، وأربعة أيام.

استكملت المذيعة قراءة نشرة الأخبار:

– في إحدى مستشفيات مدينة لندن، فاضت – صباح هذا اليوم – روح الفنان عبد الحليم حافظ بعد معاناة طويلة مع المرض.

أول ما تبادر إلى مخيلتي صورة سامية وهي تتلقى الخبر، خلتها سوف تنكمش داخل جلدها الهلامي، في المبنى الأبيض الجميل الذي تسكنه، كأنه القصر المرصود، وتبكي بحرقة شديدة بينما المذيعة تستكمل قراءة التعليق على الأنباء، تمنيت ألا يكون ذلك الخبر هو أول ما تسمعه هذا الصباح، وإن كانت حتمًا ستعرف. فتحت النافذة كي أطرد رائحة موت حليم عن غرفتي المعبقة بالدهشة، والحزن. نظرت إلى الأفق، أحسست أن هناك نسمة حزن قادمة من السماء "أحلف بسماها وبترابها" حاملة رسالة مؤكدة أن سامية تنظر الآن من شرفتها المطلة على الحديقة المسورة، تتساءل إن كنت قد سمعت الخبر مثلها، وتتمنى ألا يكون هو أول ما أسمعه صباح اليوم.

وجدت شقتي نفسها تتمتم حامدة الله أن عبد الحليم مات صباح الخميس، وهو اليوم الذي عادة ما أكون فيه في منزلي بالإسكندرية، اندفعت أرتدي ملابسي وانطلقت إلى الشارع لا أعرف إلى أين أذهب، امتلأ راديو مقهى العربجية بصوته المليء بالحزن "يا ولدي قد مات شهيدًا

من مات فداءً للمحبوب" رددت أم عباس وهي تحمل طبق الفول لابنها وأسفله أرغفة: "يا كبد أمك عليك يا بني"، ارتكبت قدماي وأنا أسمعها تنهنه. لم يتغير شيء في شارع النيل، فعمال وردية الليل تناثروا في الشارع، يقومون بطقوسهم اليومية عقب عودهم من عملهم في شركة الغزل.. "مقدورك أن تمضي أبدًا". عم رياض يقطع الأرغفة إلى أنصاف يملأها بالحلبة المعقودة ويدفع بها إلى التلاميذ الذين تأخروا عن فصولهم، بالتأكيد لن يردد أحد نشيد الصباح، وهل يجرؤ أحد أن يغني وقد مات المغني الأول في البلاد؟

نطق كل شيء في كرموز بالحزن، لم يتكلم أحد.. الألسنة خرساء والعيون تتساءل: هل سمعت؟ تكتفي الوجوه بأن تهتز علامة الحسرة.. تمنيت لو جاءت سامية إلى كرموز لترى كم يحب الناس عبد الحليم. فهنا في نفس الشارع ملأت الميكروفونات أروقة البيوت والأفران في 1956، 1967، 1973، وطوال سنوات البهجة. الناس هنا يحسون أنه منهم، يعرفونه ربما أكثر من أفراد أسرهم، بل لا يكادون يعرفون أنفسهم إلا من خلال الذكريات التي ربطت أغانيه فيما بينهم، لدرجة أن جمال سليمان يؤرخ قصة حبه الطويلة من ناهد من وقائع أغنيات عبد الحليم، إنه دفتر ضخم يمكن أن نعرف من خلاله متى غنى عبد الحليم أغنية "جبار" في الإذاعة لأول مرة، وآخر مرة غنى فيها "يا مالكا قلبي" في إذاعة صوت العرب. أما جرجس ممتاز فقد أقسم أن يطلق اسم عبد الحليم على أول مولود يرزقه الله به من حبيبته مارينا لو قدر له أن يتزوجها

"قد تغدو امرأة يا ولدى يهواها القلب.. هي الدنيا".

تحولت "كرموز" إلي سرادق كبير حزين، في تلك الساعة رغم أن الحياة تسير كأن شيئًا لم يحدث. سرعان ما لمحت صوره في المحلات التي بدأت تفتح أبوابها للزبائن، أحسست كأنني أرى هذه الصور لأول مرة رغم أنها معلقة هناك منذ فترات متباينة.. رأيت الصورة هناك.. إنها نفس الصورة التي مازلت مديونًا بنصف ثمنها "مليم" حتى الآن.. استندت على زجاج المحل. كأنني أريد أن أنزعها من مكانها، انتابتني الرغبة أن أعود إلى القاهرة أبحث عن سامية مجددًا.. فربما تهديني لهفتي عليها وشجني على عبد الحليم أن أجدها عليها بعد البحث العبثي الذي استمر شهورًا طويلة.

قالت: أرجوك.. لو غبت عن المعهد فلا تفتش عني.

ستفتش عنها يا ولدى في كل مكان..

وستسأل عنها موج البحر، وتسأل فيروز الشطآن..

تنبهت فجأة أن الحل الوحيد هو أن اذهب إلى الكورنيش.. فهناك يمكن أن أكون في حال أفضل، بعد أن أنهكني البحث الطويل عنها عقب اختفائها المباغت، ودون سبب ظاهر. تركت عنوانًا ورقم هاتف، لكنها ليست في العنوان والهاتف كلما دق، ورفعت السماعة، وضعت مرة أخرى لتزيد من حبائل اللغز المعقد.. ليس فقط لماذا اختفت بل لماذا ظهرت؟

وسترجع يومًا يا ولدى مهزومًا مكسور الوجدان..

وستعرف بعد رحيل العمر بأنك كنت تطارد خيط دخان..

راحت الشوارع تلفظني وأنا في طريقي إلى الكورنيش، وانطلقت الذاكرة تنشط في أعماقي، تمتمت دون أن أتنبه أن شخصًا اندهش لأنني أكلم نفسي:

– انتهى اليوم عصر بأكمله.. زمن عبد الحليم.. وزمن سامية الحرقاني..

دمدمت: خسارة..

عند الشاطىء دفعتني الأمواج الباردة كأنها تود أن تعيدني مرة أخرى إلى المدينة لكنها لم تستطع أن تمنعني أن أنزل إلى حافة المياه أحاول أن ألمس برودتها، وكأنني أتأكد أن دمائي لا تزال دافئة ثم اندفعت كأنني في مواجهة موجة عالية قادمة لتنثر عليّ رذاذها وصرخت:

ما أصعب أن تهوى امرأة.. يا ولدى ليس لها عنوان..

كررت الأغنية أكثر من مرة وأنا أغلق عينيَّ، وأشرد مع الرحلة المعقدة التي قطعتها بحثًا عن فتاة أحببتها، وربطتني بها آخر أغنية لعبد الحليم، وكانت آخر أغنية لنا معًا، فكم رددتها في طريق المدينتين المظلم – القاهرة والإسكندرية – وأنا أشعر أني الشخص الوحيد في الدنيا الذي كتبت هذه الأغنية، ولحنت، وغنيت من أجله. ليس أبدًا في جوها العام. بل في كل كلمة من كلماتها. فلا أعرف أين توجد الآن حبيبة قلبي. هل عادت إلى بلادها بعد المواجهة الساخنة بين القذافي والسادات. أم هربت إلى

إيطاليا حيث تسكن أمها. أم أن أباها دفع بها إلى عريس ثري كي يتفرغ لزوجته الجديدة التي حدث أبناءه عنها؟

انطلقت الأسئلة طوال أشهر بلا إجابات، وزادت الحيرة، لكن كلمات الأغنية التي كلما رحت أرددها في الطرق المظلمة أو حتى وأنا أكتب الآن عنها تتجسد معها المشاعر ويتضخم داء الحنين، كأنما ولدت هذه الأغنية من أجل أن تكون شاهد قبر على أمرين لا ثالث لهما.

على حب مقلوب فنجانه، وعلى مريض نحيل انفجرت الدماء من كبده الضعيف فانزلقت منه الآلام وهو يردد:

بصَّرتُ ونـجَّمتُ كثيرًا.. لكني لم أقرأ أبدًا..

فنجانًا.. يشبه فنجانك..

الأغنية الخامسة

ضاع يا حب في الهوا ما بينا

فجأة استيقظت كل ذاكرة البشر، وانتفش الحنين المتضخم والتساؤل يملأ الوجدان:

– ترى ماذا تكون هذه الأغنية؟

حدث كل شيء مصادفة، لكن كأن هناك موعدًا مع الأغنية. موعد لا أعرف من ضربه لمن، ولا كيف سيكون اللقاء، بدت الأغنية كأنها اختفت في التاريخ ثلاثين عامًا بأكملها، وخرجت الآن فقط لتنشط كل المشاعر التي تكاد تخمد بعد أن أشعلت سميحة كل غابات الحزن في الوجدان.

الإصبع يكاد يدوس على زر الراديو، لكن الذاكرة التي اصطدمت بكل هذه الكلمات المؤلمة دفعتني لأطردها من غرفتي الصغيرة، وانظر إلى السماء عبر كوة ضيقة وصوت الأغنية ينساب مليء بالرقة والقسوة.

يا ليالي الغرام عودى إلينا

وخذى الصفو والمنى من يدينا.

كل شيء مهيأ لتلك الحالة المرضية التي حلت فجأة، لم أكن قد تحصنت ضدها أو أتوقعها، في هذه الغرفة الضيقة شواهد قبور حية لأشياء أصبحت الآن من الماضي، سميحة موجودة هنا: منتصبة القامة في هذا الركن، تغني في

الركن الآخر.. نتعاتب فوق الأرض.. نتبادل أصدق القبلات فوق الأريكة، والباب مغلق الآن كما يكون دائمًا عندما تأتي إلى هنا.

أمد يدي عبر ملابسها، وتنطلق عبارات الرفض، رغم أنها المرة الخمسين بعد الألف التي ألمسها.

هذا معبدنا، وأكثر الأماكن اتساعًا لجسدينا، هذه الكلمات بالغة القسوة، فرغم أن سميحة موجودة، فإن الأغنية تنبهني فجأة أن سميحة ليست هنا، بل لن تعود إلى معبد حبها أبدًا. "وخذي الصفو والمنى من يدينا".

رحت أتطلع إلى يدي. إنها خاوية. لا أمسك بهما شيئًا. يداي خاويتان من كل أثر يؤكد أنني لمست جسدها، وأذني تبدو كحصالة خالية من أثر كل كلمات رددناها هنا وفمي جامد لا يمكنه أن يتحرك ليتكلم، والبرودة تسري في دمي وجلدي، وقد امتلأت دومًا بحرارتها.

فردت يديَّ، وأطبقتهما ثانية، أحاول أن أقبض على شيء انزلق بين أصابعي، أحسست أنني من أضعف البشر، بل أشد الناس عجزًا، فلست بمستطيع أن أعيدها إلى الغرفة، وهي التي كانت دومًا فيها..

ألقيت رأسي فوق المسند، وتمددت في رغبة عارمة لأدير المفتاح وأغلق الراديو، لكنني أيضًا لست بمستطيع، لا أعرف هل تتحداني الأغنية في أن تثبت أنني الشخص الأكثر حوارًا في الدنيا، أم تتوعدني أن تجلب

عليّ كل هذه الذكريات الماثلة في الغرفة لتؤكد أن فيلمي مع سميحة موجود هنا، لكنه في البداية والنهاية ليس سوى شريط وأن اللحم الدافيء لم يعد موجودًا الآن، وصوتها الأنثوي، الوحيد الذي أعرفه من بين أصوات نساء الدنيا، قد تناثر بعد أن علا صوت عبد الحليم، كأنه يؤكد قدرته على تجسيد كل هذه الذكريات لدينا، رغم أنه رحل منذ خمس سنوات.

أحسست كأنه يتحداني لأول مرة، بل ويؤلمني. كلما كرر عبارة "ليالي الغرام" تشتعل الغرفة بالذكريات، ويصطدم الباب الذي طالما دخلت منه سميحة بالنافذة التي طالما أغلقتها وهي هنا، تعمدت أن أغلقهما الآن، حتى لا تتناثر الذكريات، وحتى لا تتطاير سميحة مجددًا في المكان.

خبري عن غرامنا وصبانا. أين راحت عهودنا فيك؟

قالت: اسمع. نحن أصدقاء لفترة، إذا راقت لك صداقتي، أحبني و....

وابتسمت، وقلت: أحلى الأصدقاء أنت.

وقالت من مكان آخر في الغرفة وهي تكشف عن أجمل جواهرها:

- أعدك ألا يرى هذا أحد سواك.

ثم ارتمت بين ذراعي.. وعلى صدري، المكان الذي أكدت أنه وسادتها الأبدية. رحنا نرتشف الوعد.. وفوق هذا المقعد قالت:

- سنتزوج عرفيًا، رغمًا عن إرادة أبي.

وأغلقت عينيها، وقالت:

- هل تذكر يوم أن تعرفت عليك، عرضت عليك صداقتي، الآن أنا اسمي سميحة غانم.

وخلطت اسمها بلقب أسرتي. وأكدت أنها تفخر بي في كل الدنيا.

فجأة نبهتني الأغنية. وراح عبد الحليم يكرر جملته كأنه يوقظني:

أين راحت وعودنا فيك.. أين.. يا ليالي الغرام؟

أنظر إلى النافذة لأتأكد أن شيئًا من كل هذا لا يمكن أن يتسرب خارج الغرفة. والأغنية تنساب، تعيد تجسيد كل اللقطات التي تود أن تصبح ذكرى، وما أقسى أن تصبح مثل هذه اللحظات ذكرى.

أين نار الهوى عشقنا لظاها، وطربنا لسحرها.. وانتشينا..

قالت وهي تغمض عينيها قبل أن تذوب في غيبوبة النشوة:

– أرجوك.. لا توقظني.. لو نمت..

ونامت على كتفي وغرقت في نوم طويل، أصاب ساقي تنميل ملحوظ بعد أن أحسست بها ثقيلة، التهبت أنفاسها وقد سلبها النوم مني. صحت وأنا أضحك:

– بنت يا سميحة.. هل نمت فعلًا؟

لم ترد.. تخيلتها تعانق أحلامًا وردية، ورحت أحسدها على ما فعلته، وتمنيت لو كان معنا شريط يمكنني به أن أرى أحلامنا.. رحت أناديها من جديد وأنا أضحك. تصورتها تداعبني، أو أنها تمثل النوم، لكنها كانت قد غرقت فيه فعلًا، أحسست بجسدها الدافيء بين أناملي "نار الهوى" ورغم ذلك بدأت أفك يديها عن عنقي، وبرفق وضعت رأسها على المسند الصغير، وانسحبت إلى ركن من الغرفة أنظر إليها.

تمتمت وعبد الحليم يصر على إعادة مقطع من الأغنية: "أين نار الهوى"؟

ليتنى ما تركتها تستيقظ!! عندما استيقظت بدت مندهشة، وسألت:

– ماذا حدث؟

قلت: من الواضح أنك تمشين أثناء النوم.

بدت كأنها صدقت كذبي، سألت: هل مشيت على الشرفة مثل حسن فايق؟

وراحت تذكرني بالفيلم الذي مشى فيه حسن فايق على شرفة منزله أمام فريد الأطرش الذي تحبه كثيرًا. أجبت: ربما أكثر نشاطًا..

ووقفت وسط الغرفة تقلد حسن فايق ينطلق ماشيًا وهو غارق في النوم. ملأت الغرفة بصوتها، وبدأت تدب فوق الأرض.

قلت: الجيران.. أنت تدبين فوقهم.

امتلأت الغرفة ضحكًا. اقتربت مني وأنا جالس فوق الأرض أرقبها ولا أكف عن الضحك، وقالت:

– يا عوازل فلفلوا..

"ضاع يا حب في الهوى.. ما بنينا.. يا ليالي الغرام".

أمسكت بالراديو، وجلست في المكان الذي قبلتني فيه بعد أن قالت "يا عوازل فلفلوا". حاولت أن ألمسها.. فاكتشفت فجأة أنها غير موجودة..

سألت البائع:

- هل لديك شريط أغنية اسمها "ليالي الغرام" لعبد الحليم حافظ؟

نظر إليَّ في حيرة وهز رأسه مثل أكثر من عشرة بائعين، سبق أن سألتهم عن الأغنية في شارع صفية زغلول، قائلًا:

- لم أسمع بهذه الأغنية.

رحت أتطلع إلى صف طويل من الشرائط عليه أغاني كثيرة لعبد الحليم، سألني رجل كان يساوم في سعر زجاجة عطر غالية الثمن:

– لا تبحث عن هذه الأغنية.. فهذا الجيل لا يعرفها..

ثم راح يمصمص شفتيه في حسرة:

– يا خسارة.. الأغنيات الحلوة لا يعرفها الناس.. لكن على فكرة..

بدا كأنه يوجه كلامه إلى البائع، وإليَّ معًا:

– هذه الأغنية ليست اسمها ليالي الغرام بل "نداء الماضي" إنها قصيدة كتبها محمود حسن إسماعيل.

انتفضت مجدداً فوق السرير، أحسست أن رأسي يكاد يشتعل، على غير موعد مع الحنين المتضخم، ويحول الغرفة الواسعة إلى محبس ضيق، أردت أن أدير مؤشر الراديو لأستمع إلى محطة أخرى. فالحالة لا تحتمل ألمًا جديدًا، وأنا الذي تدربت جيدًا أن أنسى كل ما يتعلق بهذه الأغنية وما سببته لي ذات يوم، قبل عشر سنوات، في غرفتى الصغيرة بالإسكندرية، الآن تغيرت أشياء كثيرة، هأنذا أنام في غرفة أخرى تطل على صحراء في أطراف القاهرة، وزوجتي التي لا تحتمل جنوني بالراديو تقيم في غرفة مجاورة في أحضان صغيرها، لم يعد لهذا الراديو أية فائدة سوى أن أتلقى منه أخبار الدنيا، فأية أغنية من الأغنيات المتناثرة مع الليل كفيلة أن تندفع إلى شراييني، وتجعلني أنتفض فوق السرير مثلما يحدث الآن في الثانية والنصف تقريبًا بعد أن نام أغلب البشر في مدينة نصر.

نحن شعر الهوى سلام على الطير إذا هاج شوقنا..

الآن، لعنة الله على أى شيء يمكن أن يهيج شوقنا بعد أن دفنا ماضينا مع كل ما كان يتطاير حولنا، لم يعد هناك شيء يستحق أن ننتفض من أجله، حتى سميحة نفسها، فهي الآن راقدة في سريرها بمدينة أخرى بعيدة أيضًا في أحضان ولديها، وزوجها الذي تركتني من أجله راحل دومًا إلى بلاد بعيدة من أجل أن يسدد لها قسط شقتها الفخمة المطلة على شاطيء البحر.

أدوس على زر الراديو مجددًا، لكن مقطع الأغنية يتكرر مجددًا، كأن عبد الحليم يتوسل أن أبقى على صوته "إذا هاج شوقنا" إنه يكرر المقطع خمس مرات. انتفضت من مكاني، وأحسست بجوع شديد، ليس في بطني مكان منه، أمسكت رأسي وتنبهت فجأة أن أشياء كثيرة تسربت مني

"ونسينا الحياة إلا جراحا.. وبقايا من المنى في يدينا، يا ليالي الغرام"

ووجدتني لا أتذكر سميحة، بل تلك اللحظات التي سمعت فيها الأغنية قبل سنوات، أحسست كم كانت ثقيلة ومؤلمة على صدري، تمينت لو لم أستيقظ من النوم، تنبهت أن غرفتي هذه لم تطأها سميحة قط، ولن يحدث أبدًا مهما كانت الأسباب، وأن هناك امرأة أخرى أخذت مكانها، سميت في عرف القانون بزوجتي، لم أغن لها أية أغنية رغم أن الأماكن التي جمعتني بسميحة قد شهدتنا فيما بعد، ورغم ساعات الحب المتواصلة التي استمرت فيما بيننا.

لم أحاول أن أسأل عن السبب، ربما لأن زوجتي لاتزال معي، هنا تحت نفس السقف وأن سميحة فضلت رجلًا آخر عليّ جعلني أتساءل دومًا: لماذا هو.. ولماذا ليس أنا؟

انتهت كلمات عبد الحليم دون أن أسمع الإجابة، وراحت موسيقى الختام تنساب هادئة، حزينة، كأنها تقوم بمواساتي، أو كأنها تقوم بتعزيتي في فقيد غال ضاع مني هو لا يزال على قيد الحياة، ويبعث لي هذه الأغنية على حين غفلة ليوقظني من حلم قديم تصورته قد سقط سهوًا من الذاكرة.

في ميدان العتبة، سحبني "حسان" من يدي وقال:

– تعال نشتري بعض الشرائط.

لم أسأله إن كان يود شراء شرائط من أجل فيلمه الجديد الذي سيقوم بإخراجه، لكنني اندهشت من الكم الهائل من الشرائط التي راح يختارها لفرقة الموسيقى العربية، وبدا كأنه هاو يود أن يستكمل مجموعته النادرة، وقفت أتأمله. بدأت عيناي تتصفحان أغلفة الأشرطة. لا أعرف ما الذي دفعني أن أفتش عن عبد الحليم حافظ، رغم أن مكتبة شرائطي مزدحمة بأغنيات لفريد الأطرش، وأم كلثوم، وعبدالوهاب، ولويجى، ومارك آربون، وجان فرانسوا ميكائيل، وفريق الأبا..

لم أصدق عيني وأنا أراه.. انه شيء ضائع مني منذ أحد عشر عامًا تقريبًا.. لمسته بأناملي كأنني لا أصدق أنه بين يدي، رحت أتأكد أنني هنا

كنت أخاله شبحًا لا وجود له يخرج بغتة وفي أوقات غير مناسبة من داخل الراديو، كي يقلب عليَّ مواجعي وآلامي.

تمتمت:

– نداء الماضي..

ردد البائع وهو يقوم بتجميع مجموعة الموسيقى العربية:

– أربعة جنيهات..

وقبل أن أدفع ثمن الشريط كنت قد دسسته في مكان آمن داخل ملابسي، كأنني أحتضنه، أو ربما أضمن لنفسي أننى لن أفقده أبدًا، فقد تسربت الأغنية في المرتين السابقتين مع الأثير، ولم أستطع الإمساك بها، فهي من أندر أغاني حليم التي تبثها الإذاعة. في السيارة سألني حسان:

– ماذا اشتريت؟

قلت: أغنية ع الجرح..

سأل من جديد: أي جرح.. جرحي أم جرحك؟

رددت في أسى وأنا أخرج الشريط، ثم أنزع عنه الغطاء السلوفان:

– بعض الجروح متشابهة. اسمع..

امسك الشريط بأنامله، قلت: عبد الحليم حافظ.. هل تحبه؟

لم يعلق، دفع بالشريط في المسجل، دامت لحظة صمت إلى أن تبدأ الموسيقى، أحاول أن أسترجع كل الآلام التي اعتصرته في السنة الأخيرة، بعد أن هجرته إلهام فجأة، إلى رجل آخر، وحولته إلى أشلاء رجل، وقام بتوزيع أحزانه على لياليه وأيامه. هنا بدأت الموسيقى، لم ينتبه كثيرًا إليها، قال:

– من رأى مأساة غيره، هانت عليه مأساته..

قلت: مر زمن الأحزان، وعليك أن تبحث عن امرأة أخرى.

بدا كأنه يبتسم بسخرية وقال: لا أريد أن أبحث عن امرأة تختار رجلًا آخر بعد أن تعاشر زوجها عشر سنوات.

قلت: تركتني سميحة بعد أن أحبتني خمس سنوات..

كان يؤكد تمامًا أن علاقتي بسميحة تختلف، وأحس أنني أيقظت هذه القصة القديمة من أجله، رغم أنها لم تعد تسبب فرحًا أو حزنًا، بل بدت أشياء باردة تهب أحيانًا من سنوات بعيدة، لعله يقصد أن سميحة لم تعاشرني كزوج.

انطلق صوت عبد الحليم يخترق جدران السيارة، يا ليالي الغرام.. عودي إلينا.. شعرت به ينتصب فوق مقعده، تمتم بصوت سمعت به كل نبرات جملته: يخرب بيتك..

بدوت كأنني طعنته بخنجر مسنون الطرف، ومزقت به أوصاله، لم أعرف من كان يقصد بالضبط بتلك السبة التي انطلقت من جوفه بشكل عفوي، هل زوجته السابقة، أم الأغنية؟ أم سرب من طيور الحنين راحت تهب مع أولى لمحات المساء الذي يهل علي المدينة لتوهج فيه ذكريات رواها لي عشرات المرات، فهذه الكلمات التي تنطلق من المسجل، تبدو ذات فعل ساحر، ففجرته إلى قطع صغيرة من الحنين.

لم يحتمل أن يكمل مقطعًا واحدًا من الأغنية فقد داس على زر المسجل وأخرج الشريط ثم دفعه لي في غيظ شديد، وقال وكأنه يخفي كل ضعفه:

– دعنا نستمع إلى شيء أفضل..

عانقت يداى الشريط، كأنني أحمد الله أنه عاد مرة أخرى إليَّ بعد البحث عنه منذ زمن طويل. أحسست أنني كدت أن أقيم مذبحة مليئة بالشجن داخل السيارة، قلت كأنني أعلن موافقتي له:

– لقد أخطأت الشريط.. سوف أعيده لآخذ أغنية أخرى.. "لقاء".. ربما..

تمتم إيهاب، صديقي الذي يصغرني بسبعة عشر عامًا وهو يريني ما بداخل العلبة الصغيرة:

– ما رأيك.. حلوة.. ألا تستحق رحاب؟

سألته: كيف.. وأماني.. هل نسيتها بسرعة..؟

بكل أسى قال: رحاب أجمل، أصغر سنًا، وتحبني.. أما أماني فقد كانت تتسلى بي.

قلت لصديقي البدين بهاء غراب، وأنا أسمع منه تفاصيل موت عزمي:

– رحمه الله.. كان شخصًا غبيًا..

لم أصدق أن عزمي، الفنان الوسيم، صاحب أغلى سيارة عرفها ممن هم في سني وأرق رسم رأيته لأحد زملائي، أن يموت حزنًا على فتاة هجرته إلى رجل آخر، قال بهاء:

– لم يحتمل الصدمة فمات.

ضربت كفًا بكف وأنا مازلت واقعًا تحت سطو الدهشة، فكيف لإنسان أن يتعذب من أجل امرأة هجرته، كي تتمتع مع رجل آخر، بل كيف يموت، سألني بهاء:

– كان فنانًا.. قتلته الرقة.

رددت في حسرة:

– لو كان فنانًا لفعل شيئًا آخر..

بدت نظرات بهاء مليئة بالتساؤل. كأنه لا يفهم سر الروشتة التي سأقدمها لصديقه الذي قتله الحزن.

قلت:

– كان عليه أن يتألم قليلًا.. ويستمع إلى "نداء الماضي" مرة واحدة.. وهذا يكفي..

اكتسى وجهه بالدهشة، كأنني نطقت بخزعبلات.. لم يكن أمامي سوى أن أشرح له الموقف بالضبط، وأعلمه كيف يستعمل أمثال هؤلاء المرضى روشتة "نداء الماضي" تذكرت أن الوقت لم يعد مناسبًا. ضاع يا حب في الهوى ما بنينا. يا ليالي الغرام.

اكتشفت فجأة أن الهوائي الدولي الذي قمت بتركيبه فوق السطح منعني طوال أشهر عديدة من فتح الأدراج التي تعج بها شرائط المسجل. وكيف لي أن أسمع شريطًا بأذني فقط. بينما يمكن لهذا الهوائي أن يريني أبعد الأماكن التي شهدت كل هذا الحنين المتدفق، وكفاني ما أحدثته فيَّ أغاني فيلم "قصة حبي" قبل أسابيع، وخاصة أغنية "يا جميل يا جميل" التي سجلتها على شريط ممزوجًا بصوت سميحة وهي تملأ غرفتنا الصغيرة طربًا وبهجة. وأيضًا "سألني الليل بتسهر ليه مدام قلبك صبح خالي" التي علمت مشاعري نحو كل من نجاة وسامية وسميحة في لحظة واحدة.. ربما لأنهن جميعًا دخلن في دائرة الحنين.

لا أعرف لماذا انتابتني الرغبة اليوم في أن أعبث في درج الشرائط.. هالني عددها وتنوعها تنبهت فجأة أن وراء كل شريط تتجسد ذكرى حية. فهذه أم حسن تتكلم إلى وكأنها لم تمت في شريط خاص بها، وتلك ابنتي تنطق لأول مرة باسمي وينطلق صداي مليئًا بالفرح.. لكن هذا هو الشريط الغريب.. قابع هنا كأنه يتحداني.. أمسكته بين أناملي كأنني أتساءل:

- ترى هل له نفس التأثير؟

لم أنتظر الإجابة. أغلقت باب غرفتي، ودفعت به إلى المسجل، ورحت أنتظر ثواني بالغة الطول.. وأنا أعد نفسي لأكون جامدًا متحجرًا، أطرد عني كل ذكرى يمكن أن تثير شجوني مهما كانت قوة الأغنية..

يا ليالي الغرام.. يا ليالي الغرام.

عودي إلينا وخذي الصفو والمنى من يدينا.

انقلبت الغرفة رأسًا علي عقب، وجاءت كل أشباح غرفتي الصغيرة تتحداني، بل جاءت أشباح عزمي، وبهاء و"حسان"، حاولت سميحة أن تطردهم جميعًا، كي تبقى هنا. والغريب أنها استطاعت أن تفعل.

الأغنية السادسة

عاشق من أولها

كان أول هم لي، كما بدا أنه هم بعض الموجودين في الأتوبيس، أن أتطلع إلى الوجود، علي أجد وجهًا أستريح لصاحبته أو لصاحبه، حتى أكون منطقيًا، فكل هؤلاء ذاهبون إلى شاطىء مطروح لقضاء أسبوع بأكمله، أغلبنا لا يعرف الآخر خاصة أنني وزوجتي وابنتي لسنا سوى مرافقين لأسرة زكي – عديلي – باعتباره عضوًا عاملًا في نادي سموحة.

رددت قائلًا بعد أن شعرت أن أحدًا لم يلفت أنظاري:

– مرسى مطروح ثانية. بعد عشرة أعوام!!

انطلق الأتوبيس السياحي يضرب الأسفلت. تطلعت عيناي إلى الشاطىء الأزرق البعيد الذي غطته القرى السياحية ذوات المنشآت البيضاء، تنهدت بارتياح وأنا أحس أن أشياء كثيرة تغيَّرت، أبسطها أنني تخلصت من سطوة "غلبت أصالح في روحي" التي كم مزقت أحشائي، كلما وضعها سائق الأتوبيس قبل عشر سنوات كي يدفعني لأسمعها، ولأتألم لأن سميحة هجرتني إلى رجل آخر.

فجأة دفع الصبي شريطًا، وأشار إشارة مبهمة لم أفهمها إلا بعد أن لوح بيديه بنفس الطريقة أكثر من مرة، مددت بالشريط لسائق أتوبيس الرحلة المتجهة إلى مرسى مطروح، وكأنما كان يتوقع ما حدث، دفع بالشريط داخل المسجل.. وعلى الفور تحول الأتوبيس إلى ملهى راقص، وغنائي..

مابلاش نتكلم في الماضي..

والماضي ده كان كله جراح

راحت زوجتي تصفق كأنها تود أن تؤكد للجميع أنها لاتزال في نفس أعمارهم، يمكنها أن تفعل مثلما يفعلون، التفت للمقاعد الخلفية، رأيت مجموعة الشباب وقد اندمجوا مع الأغنية، أحدهم يهز رأسه مقلدًا عمرو دياب، وآخر يمسك طبلة أخذ يقرع عليها في حماس شديد.. نظرت إلى البحر الذي بدأ في الظهور في أحلى ألوانه قرابة العلمين ثم التفت ورأيتها. كان صوتها مميزًا للغاية. وأيضًا ملامح وجهها. إنها أشبه بسميحة عندما كانت في مثل سنها، أقصد في بداية علاقتنا معًا. اكتشفت فجأة أنني نسيت وجه سميحة، وأن كل ما أتذكره عنها ليس سوى ملامح غير مؤكدة لفتاة في الثالثة والعشرين من العمر.

وما إن انتهى الشريط، حتى دفع شاب بشريط آخر لمطرب لم أسمع عنه من قبل، وسرعان ما انطلق صوته الذي أشعل الأتوبيس حماسًا وبهجة:

داري رموشك عني.. وداري..

ليه بتحبي تزيدي في ناري..

رأيتها تحمل حقيبتها وتدخل مع أختها وأمها إلى خيمتهم في معسكر الشاطىء، وددت أن أعبر لها عن إعجابي بصوتها لكنها لم تنتبه إلي.. انطلقت أبحث عن حقيبة ناقصة كدنا أن ننساها في الأتوبيس.

في المساء، التقينا جميعًا لأول مرة في مطعم المعسكر، مائدتهم قريبة منا مع أبيها وأمها وأختها، تعمدت أن أحرك المقعد، كي يتاح لي أن أتأملها، كلما همت بالتهام لقيمة جديدة، تأكدت أن النظرة الأولى كانت في محلها، وأنا الذي كثيرًا ما خدعتني النظرة الأولى.. دققت أكثر من مرة، كانت تبتسم أحيانًا. أجمل ما فيها أنفها وعنقها، فجأة، وضع أحدهم يده على كتفي، ارتجفت، لعله لاحظ نظراتي غير البريئة، إنه مراد. كما قدم نفسه لي، زميلنا في الرحلة، قال:

– هل لديكم برنامج محدد؟

رد: لا، مجرد تعارف..

سرعان ما رحت أدبر خطتي الخبيثة.. تقابلنا جميعًا.. غرباء وعلينا أن نخرج يعرف بعضنا البعض في وقت قصير، أمسكت مكبر صوت صغير ورحت أقدم نفسي. ثم قلت:

– أنا في حاجة لشخص موهوب.. مطرب مثلًا..

ورفعوا أياديهم الكثيرة، لكن أصابعي اللئيمة أشارت إليها:

– أنت..

جاءت بأناقتها الملحوظة وسط همسات الحاضرين. كأنهم فهموا نواياي البالغة الخبث، أو ربما إعجابًا بجمالها، قلت:

– أنت أول من سيقدم نفسه.. ثم سنختار طريقة لنتعرف بها على الآخرين.

أمسكت الميكروفون من يدي.. وبكل ثقة كأنها تعرف ما ستفعله قالت:

– اسمي حسناء حسين.. خريجة كلية تجارة.. 22 عامًا، أسكن شارع أبي قير.

وتنهدت مع كل كلمة تنطق بها، كان هذا وحده كفيلًا أن أنهي الحفل، فقد حصلت على ما أوده.. فاسمها يتطابق مع حسنها، لكن لماذا لا نوطد الصداقة ونتعارف؟ وبدأ الحفل.. كان عليها أن تغني أغنية شهيرة وأن تتوقف فجأة، فنشير إلى الشخص الذي عليه أن يقدم نفسه وعائلته، أن يستخدم آخر كلمة تغنت بها حسناء في جملة مفيدة. وأن تكون في بداية التعارف، وطال بنا السمر وآوانا الليل في أحضانه وغنت الفتاة كثيرًا، أربكت بذكائها جميع المصطافين الذين جاءوا إلى معسكر نادى سموحة، وسرعان ما اندمجنا في فريق واحد، ومع امتداد ساعات الليل انسحب من شعر أنه أكبر سنًا، ورحت أقاوم إحساسي بالزمن. بينما نظرت زوجتي إليَّ، وقالت ببراءة:

– سأبلغهم أنك تصبغ شعر رأسك.

راح بعض الصغار يسخرون من هذا التعليق، وفتش بعضهم عن الشعرات المصبوغة في رأسي. تأكدوا أن هناك شعرات بيضاء تعلن أنني تجاوزت السن الذي لا يسمح لي بالسهر. رحنا نصنع دائرة بشرية صغيرة حول حسناء، تركنا كل مشاعرنا لها لتحركها كلما غنت، أياً كانت الأغنية التي اختارتها.

كأننا كنا على موعد لم يضربه أحدنا للآخر..

إنها هناك، بطلعتها المميزة، جالسة مع أختها عند الشاطئ والأفق يبدو أنه فرد نفسه ببساطة اللازوردي، والشمس الشاحبة التي لم تسلط حرارتها بعد على المدينة.

هناك على مسافة غير بعيدة طفلان يتقاذفان بالكرة، لم ألحظ في بداية الأمر المرأتين اللتين اختارتا أن تسبحا في السادسة صباحًا قبل أن يستيقظ أمثالي من الرجال.

أشارت حسناء إلي عندما رأتني.. أول ما بادرتها

قلت:

– صباح العندليب الأبيض.

ابتسمت للمجاملة، قالت أختها ياسمين: ما رأيك؟

قلت وقد اتخذت مكاني فوق الرمل المبلل: أنت فيروز الغد.. أو ماجدة الرومي.

وددت أن أتناول فطوري غناء، قالت: لست مستعدة. نحن في الصباح.

قلت: أجمل أصوات الطير في الصباح أو قبيل الغروب.

لم تكن في حاجة لمثل هذه الكلمات، بدأت تشدو بإحدى أغنيات فيروز، تعمدت أن أنظر إلى الأفق وتخيلتها غير موجودة، لكن صوتها فرض نفسه على أذني، ولأول مرة أتغلب على حنيني، وأدفنه في هذا المصيف. ثم دفنت رأسي في ساقي، ولم أخرجها إلا عندما انتهت. قلت:

– خسارة، وسط ما نسمعه من غناء الآن..

قالت: لا تظلم الأجيال الجديدة. هناك مطربون ممتازون.

غنت لعلي الحجار، ثم لعمرو دياب، ومحمد الحلو، وبدأ الشاطىء يمتليء بالباحثين عن المياه، قبل أن يذهبوا إلى المطعم، قلت، وأنا أرى زوجتي قادمة نحونا:

– إنها أول مرة أحس بجمال هذه الأغنيات.

أطلقت زوجتي التحية.. ثم توجهت إلى الشاطىء لتأخذ دش الصباح، بينما توجهنا ثلاثتنا، أنا وحسناء وأختها نحو الدور العلوي للمبنى الإداري.. وقبل أن نصل إلى هناك، انبعث صوت محمد الحلو من الميكروفون "آه.. آه.. آه.. آه.. آه.. دا القلب حب وداب" حاولت أن

أستوعب صوته وأن أجمع أداءها على الشاطيء ثم رحت أردد الأغنية معها. وأهز رأسي لتحية المصطافين الذين بدت وجوههم مألوفة، وفي الدور العلوي كانوا هناك. مجموعة من شباب جامعة الإسكندرية التفوا حول مراد الذي جلس يغني لهم أغنيات الجوالة، ذبت وسط الصغار ورحت أصفق وشعرت أنني واحد منهم، بينما رأيت حسناء تفعل مثلهم.

بعد قليل ذهبوا في طابور غنائي واحد إلى المطعم، يصفقون، وينشدون أغنيات أسمعها لأول مرة في حياتي.

قالت زوجتي، دون أن يعلو وجهها أي شعور بالضيق:

– هنيئًا لك. البنت حلوة..

ضحكت وأنا أدش بيضة بأكملها في فمي. فلأول مرة أتفق معها أن هناك فتاة جميلة. لكن ظني ما لبث أن خاب، فقد أخذت تعدد لي ملامح الدمامة في حسناء، قلت هامسًا:

– اطمئني. ليس في القلب غيرك.

لم تهتم كثيرًا، استكملت التهام طعامها، قلت وأنا أحتسي الشاي:

– هل ستنزلون المدينة؟ سأبقى هنا..

اختارت زوجتي أن تنزل إلى مرسى مطروح، أما أنا فبقيت عند أطراف الشاطيء أستمع إلى المزيد من الأغنيات كان بعضهم يحمل أجهزة سمعية غريبة الشكل، وضع أحدهم سماعة حول أذنيه، بدا كأنه غارق في

عالم آخر، بينما التفت الشباب حول مراد، انضمت حسناء إليهم ثم ما لبثت أن أحست أنني أبحث عنها، كأنها تود أن تستكمل حديثنا عن أغنيات جديدة.

قالت وهي تقترب مني:

– المياه تغري بالاستحمام.

نظرت إلى سطح المياه الأملس، ارتجفت، أدركت أنها تود أن تستحم، سرى في داخلي هتاف لا أعرف هويته، سألتني: هل تجيد السباحة؟

قلت مازحًا: أغرق في شبر ماء.. هل تسبحين جيدًا؟

ضحكت وأنا أدقق في أنفها المميز، قالت:

- أنا أغرق قبل أن أنزل.. لكن المياه مغرية.. سوف أنزل..

وانطلقت نحو خيمتها لتستعد للنزول إلى المياه بينما وقفت أنتظرها على حافة المياه، لحق بي مراد وكأنه اختار اللحظة المناسبة، حرك يده بطريقة سهلة الفهم، وقال:

– أيوة.. يا بختك.. كل شيء تمام.

التفت حولي حتى أتأكد أن أحدًا لم يره، بدا أن كل شخص في حاله.. الجالسين تحت المظلات والسابحين في المياه، ابتسمت وأنا لا أعرف

كيف أرد، وربما كشف ضعف ما في داخلي، أو لعله يود أن يرمي شباكه حولها، لكن هذه النقطة الأخيرة لا تقلقني، فهو يصغرها بثلاث سنوات تقريبًا، كما لا يقلقني أيضًا أنني أكبرها بعشرين عامًا تقريبًا.

لم أشأ أن أرد عليه، كيف لي أن أفعل وهي تطل من بعيد مع شقيقتها، تبدو في "بُرنس" البحر النبيذي اللون أشبه بعروس الفردوس، تستعد للزفاف على حبيبها، كدت أن أسب أمثال مراد الذين يفسدون متعة الآخرين، فلو لم يكن هنا لملأت عيني منها حتى تبلغ المياه، لكن إحساسًا دفعني أن أشرك مراد معي.

قلت، وأنا أشير إليها:

- ألا يكفيك كل هؤلاء البنات؟

قال في خبث: لا.. كله إلا الحسن.. ست الحسن.

ابتسمت، فقد قال خير الكلام. اقتربت منا. ثم صاحت موجهة كلامها إلى مراد ببراءة ملحوظة:

هل تجيد السباحة؟

وقبل أن يرد، كان الشاطىء قد لبس ثوبًا رائعًا، بالغ الجاذبية، فسرعان ما خلعت "البُرنس" وبدت حورية هيفاء وكسا لباس بحرها الأسود تباينًا واضحًا مع بقية جسدها الأبيض، ارتبكت، وغضضت البصر، وقد ألجمني هذا الحسن الزائد عن الحد، قال مراد:

أنا أغرق في لتر مياه..

بدت حروف كلماته مرتبكة مثلي، ضحكت ياسمين التي لم تلتفت إليه، بدت بدينة بشكل ملحوظ بلباس البحر، أدركت أي فارق بينها وبين أختها، قلت مداعبًا، محاولًا إخفاء ارتباكي:

من الأفضل أن نغني على الشاطىء.

هزت رأسها في دلال ملحوظ بينما تعمدت ألا ألتفت حولي، حتى لا أقرأ عشرات المعاني في العيون، أما حسناء فقالت: لماذا لا نغني في المياه..؟ وبدا كأن هناك خطوط مؤامرة من حولنا. فسرعان ما انضمت مجموعة مراد إلينا ونادتنا المياه اللازوردية، تضرب في سطحها، ونرش رذاذها على أجسادنا. ونغرق فيها حرارة المدن التي جئنا منها، نجسد رغباتنا في التحرر من قيود الآخرين التي يرموننا بها في الشوارع، وفي المواصلات، وداخل بيوتنا الصغيرة، أحسست أن المياه بللت فينا كل ما هو جاف، وفكت كل ما أصابتنا من عقد.. صفقت كما كنت أفعل منذ عشرين عامًا. وغنيت كما يغنون اليوم:

داري رموشك عني وداري

ليه بتحبي تزيدي في ناري

قلبي مسلم ليكي عاشق من أولها

مش محتاجة عنيكي ترميني بجمالها

إنها تصرخ وتغني، تصرخ كلما ابتعدنا عن مياه الشاطىء، وتشعر بالخوف الشديد فتنطلق الاتهامات التي تؤكد أنها أجبن مخلوق فوق الأرض، تضحك، فتمتزج ضحكتها بصوت جميل، وأغطس عشرات المرات كطفل لتوه من شيخوخته التي يستعد للدخول فيها غير آبه بكل العواقب.

قالت زوجتي ونحن نغادر مائدة الغذاء: الناس يتندرون عليك..

همست في أذنها وكأنني أغازلها: لا تصدقي. أنت تعرفين مكانك..

أعرف كيف أختار لها الكلمات في الوقت المناسب، فهي واثقة في جمالها، وترى أنها معسكر حسناوات، وللعلم هذا صحيح إلى حد ما، لكن زوجتي لم تشأ أن ترتدي لباس البحر، وهي مصرة أن ترتدي ملابس تغطي كل جسدها إذا قررت أن تبقى هناك ساعات طويلة لا تغادر المياه..

تنبهت أنها غير موجودة على مائدة الغداء. كانت هناك ياسمين مع أبيها. لم أشأ أن أسأل عنها، لم تأت أيضًا إلى مائدة العشاء، هنا سرى الهمس: اقترب مراد وقال:

- ست الحسن مريضة.. الزيارة واجبة.

أثناء حفل السمر الأشبه بمأتم عزاء، لمحتها تسير مع أمها متجهتين إلى الحمام، كانت تستند عليها وقد بدت في حال يرثى له.. سارت ياسمين وراءها وهي تحمل منشفة.

وددت أن أقوم لمساعدتها، أو السؤال عنها، دفعتني الأغنيات السخيفة التي يرددها الصغار أن أصفق رغمًا عني، وأنا أرى الجحود يكسو الجميع، جاءوا من أجل المتعة، وعلى من يمرض أن يتحمل آلامه وحده.. وليس هناك وقت للألم أو لمواساة الآخرين.

اقتربت من مائدتهم، ساعة الفطور، سألت ياسمين:

- سلامة حسناء.

قالت أمها ببراءة ملحوظة: لم تحتمل طعام المعسكر..

رد أبوها: معدتها هشة..

وكان يومًا مليئًا بالجفاف، وقفت أمام الشاطىء المليء بالمستحمين، وقد تناثرت صرخاتهم وفرحاتهم، بدا مراد أشبه ببهلوان عليه أن يضحك الآخرين بأي ثمن، أشار لي أن أنضم إليهم، هززت رأسي بالنفي، خرج من المياه وجذبني قائلًا: لماذا لا تستحم؟

رددت في أسى: أحس أن البحر جاف.

ضحك، ثم راح يغني:

– يا بحر جف وجف.. خللي حبيبي يخف..

ضحكت وأنا أبتعد..

في المساء كان الجميع يردد كلمات الأغنية التي ألفها مراد على شرف حسناء التي ظهرت مجددًا، بدت شاحبة تبتسم بصعوبة، بينما التفت شلته حوله وقد نصبوه ملكًا للمزاح..

جلست إلى جوار زوجتي وابنتي أختلس إليها نظرة بين وقت وآخر، كأنني أؤكد لها أنني مؤلف هذه الأغنية..

وقف الأتوبيس على قارعة الطريق كالعادة، احتشدنا أمام صندوق المثلجات نأخذ نصيبنا من المياه كي نروي العطش الذي لاحقنا طول المسافة التي قطعها الأتوبيس من مرسى مطروح إلى العلمين. الجميع يعرف بعضه الآن، تبادلنا العناوين وأرقام الهواتف، وتعاهدنا على الاتصال طوال العام. اقترح البعض أنه يجب أن يضم فوج العام القادم نفس المجموعة.

بدت ملامحها حزينة عندما كانت تستند برأسها على زجاج الأتوبيس، لم أحاول تأويل المسائل، أحسست بشجن غريب افتقدته منذ أن هجرتني سميحة إلى رجل آخر، تصورت أنني لن أحس به ثانية، تقترب مني، مدت يدها بزجاجة مثلجة، هززت رأسي في أسى، قلت:

- يا خسارة.. مرت الأيام الحلوة بسرعة، ترى هل سنلتقي؟

ردت: طبعًا.. ألم تعدني أن تعرفني على زميلك الملحن في الإذاعة؟

كأنما الحياة ردت إليَّ ثانية، هززت رأسي مؤكدًا:

- طبعًا.. طبعًا..

سألت: هل ستحضر حفل الفوج؟

وراحت تحكي لي أن أعضاء الفوج اتفقوا أن يلتقوا مساء الجمعة القادم في النادي من أجل التأكيد أن التعارف الذي تم فيما بينهم لم يكن عابرًا.

هززت رأسي مؤكدًا: طبعًا.. سوف أحضر..

قالت: سوف آتي لك بمفاجأة.

أسبوع بأكمله، لا يتردد في جنبات غرفتي سوى شريط واحد: علاء عبد الخالق "داري رموشك عني وداري" امتلأت شوارع المدينة بعشرات الأغنيات التي ينشدها مطربو جيل حسناء. اشتريت عشرة منها. أحسست أن شبابي تدفق في عروقي.. تفتحت مسامي على مشاعر جديدة.. أتذوق طعمها بعد أن خلت أن هذا الزمن قد ولى، أحسست أن حنيني لتلك الأيام التي تتضخم في ذاكرتى بدأ يعتدل. تخيلتها وراء كل كلمة تتردد في تلك الشرائط. رحت أحفظها كأنني سأكون مطرب الحفل الذي سيقام يوم الجمعة في نادى سموحة، بل تخيلت أن علاء عبدالخالق، ومصطفي قمر، وحميد الشاعري، وعلي الحجار، ومحمد الحلو استلهموا أغانيهم من حسناء.

وضعت الشرائط في علبة صغيرة، ورحت أنتظر يوم الجمعة الذي لم يأت بسهولة..

نزلت من سيارتها، أميرة في نادي سموحة، ترتدي ثوب سهرة كأنها تستعد أن تكون نجمة الحفل، ثم نزلت ياسمين مع والديها، أسرعت إليها لأحييها، تبددت لمحة الحزن التي رأيتها تكتسي ملامحها حين ودع كل منا الآخر قبل أسبوع. سرنا خلف أسرتها متباطئين. قلت:

- تصورت أنني لن أراك ثانية.

قالت: كنت واثقة أنك ستأتي.. أحضرت لك هذه..

قدمت لي لفافة، أحسست أنها فكرت في مثلما فكرت فيها. رحت أقدم قدمًا وأؤخر الثانية، سألتها: ما هذه؟

ردت: مجموعة شرائط.. أظنك تحبها مثلما هي تطربني..

قبل أن أبلغها عن الشرائط التي أحضرتها لها سمعتها تكمل:

- هناك شريط بصوتي به خمس أغنيات..

ثم أخذت تعدد لي أسماء بعض الأغنيات الموجودة في الشرائط التي تطربها كثيرًا "ظلموه".. "لست قلبي".. "لسه فاكر".. "الربيع".. "زهرة المدائن".. "سوف أحيا".. "لا تكذبي".. "قارئة الفنجان".. "من أد إيه كنا هنا".. "غلبت أصالح في روحي".. يا جميل يا جميل".. "يا عيني على قلبي".. "عمري ما شفت الحب غير لما حبيتك".. "إن جيتنا يا جميل".

الفهرس

- حقيقة 5
- الأغنية الأولى: طول عمري قلبي خالي ويخاف من الغرام 9
- الأغنية الثانية : على صدرك أرتاح من همي 25
- الأغنية الثالثة : إفتكرني...... حاول 41
- الأغنية الرابعة : ما أصعب أن تهوى امرأة .. يا ولدى.. ليس لها عنوان 67
- الأغنية الخامسة: ضاع يا حب في الهوا ما بينا 71
- الأغنية السادسة : عاشق من أولها 87